جون دومينيك بوبي



16.5.2017

بذلة الغوص والفراشة

الرواية التي كتبت برمش العين اليسرى

ترجمة : شوقي برنوصي
مراجعة : رمزي بن رحومة

رواية



جون دومينيك بوبي

بذلة الغوص والفراشة

رواية

ترجمة: شوقي برنوصي

مراجعة: رمزي بن رحومة

مسكيلياني للنشر

Twitter: @ketab_n

بذلة الغوص والفراشة

Twitter: @ketab_n

الكاتب: جان دومينيك بوبي

عنوان الكتاب: بدلة الغوص والفراشة

ترجمة: شوقي برنوصي

مراجعة وتحرير: رمزي بن رحومة

تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان

الناشر: مسكيليانى للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 23305015(216+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

ر.د.م.ك: 978-9938-833-86-7

Editions Robert Laffont 1997 ©

الطبعة الأولى: دار مسكيلياني، تونس، 2017.

جميع الحقوق محفوظة لدار مسكيلياني للنشر©

توزيع

مركز الأدب العربي للنشر و التوزيع

الموقع الإلكتروني :
www.daapd.com

مركز الأدب العربي
@Services_Book
@Services_Book
مركز الأدب العربي
adabarabic7
services_book@outlook.sa



مسؤول النشر :
للتواصل
0597777444

Twitter: @ketab_n

إلى ثيوفيل وسيليست متمنّيا لهما الكثير من الفراشات .

كلّ الامتنان إلى كلود ماند بيل، فعبر قراءة هذه الصفحات سنفهم الدور الأساسي الّذي لعبته في كتابتها .

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

استهلال

خلف ستارة القماش المتآكل بفعل العثّ، يعلن الضوء اللبنيّ اقتراب بواكير الصباح. أحسّ بوجع في كعبيّ، رأسي مثل السندان وجسمي كما لو أنّ بذلة غوص تقيّده بالكامل. تخرج غرفتي برفق من الغبش. أنظر بالتفصيل إلى صور أحبائي، صور الأطفال، الملصقات، الدرّاج الصغير من الفولاذ الأبيض -أرسله لي صديق عشيّة سباق درّاجات باريس-روبي- والمِحَملة المطلّة من سريري. سريري الذي أقبع فيه منذ ستّة أشهر قبوع السرطان الناسك على صخرته.

لا حاجة للتفكير طويلا لأعرف أين أنا و أتذكّر أنّ حياتي قد انقلبت رأسا على عقب يوم الجمعة 8 ديسمبر من العام الفائت.

حتّى ذلك الوقت، لم أسمع قطّ بجذع الدماغ. يومها فقط اكتشفت هذه القطعة المحوريّة لحاسوبنا الداخليّ «المسلك الإجباريّ بين المخّ والنهايات العصبيّة» حين وضعتها أزمة قلبيّة حادّة، خارج الخدمة. سابقا كنّا نسمّيها «التوصيلة إلى الدماغ» ونموت بسببها بكلّ بساطة. ولكنّ تطوّر تقنيات الإنعاش حوّر العقوبة. صرنا نتملّص من الموت مقذوفين فيما يسمّيه الطبّ الأنغلوسكسوني

Twitter: @ketab_n

متلازمة المنحبس[1]: مشلولا من الرأس إلى أخمص القدمين، يُسجن المريض داخل نفسه بروح سليمة ورفيف جفن أيسر صالح لجميع أنواع الاتصال.

بطبيعة الحال، المعنيّ الرئيسيّ هو آخر من يعلم بهذه اللطائف. فيما يخصّني أُجيز لي عشرون يومًا من الإنعاش وبضع أسابيع من ضبابيّة الإدراك قبل أن أفهم ما جرى: ولم أتبيّن ذلك تماما إلاّ آخر جانفي في هذه الغرفة رقم 119 بالمستشفى البحريّ ببارك، الغرفة التي تدخل إليها الآن أولى التماعات الفجر.

إنّه صباح عاديّ. مع الساعة السابعة، بدأ قرع الأجراس الصغيرة للكنيسة يُلجم انفلات الزمن، ربع ساعة بعد آخر. إثر هدنة الليل، بدأت قصبتي الهوائيّة المزدحمة في الخرخرة بصخب. متوتّرا فوق الملاءة الصفراء، طفقت يداي تؤلمانني دون أن أتمكّن من الجزم أَمِنْ شدّة الحرارة أم شدّة البرد. وكردّة فعل لمقاومة التصلّب قمت بما يُشبه عمليّة تمطّطٍ حَرَّكتْ الذراعين والأرجل لبضع ملّيمترات. كثيرا ما تكون حركة كهذه كافية للتخفيف عن عضو يتألّم.

أصبحت بذلة الغوص أقلّ ضيقا، ويمكن للروح أن تتسكّع مثل فراشة. هنالك الكثير لأفعله. يمكن أن أطير في الفضاء أو عبر الزّمن، أن أرتحل إلى أرض النار أو فناء قصر الملك ميداس. يمكن أن أزور المرأة التي أحبّ، أنزلق إلى السرير بجانبها وأداعب وجهها وهي بَعدُ نائمة. بإمكاني بناء قصور في إسبانيا، والاستيلاء

(1) متلازمة المنحبس: بالإنجليزية Locked In Syndrome. وهي حالة يكون فيها المريض، برغم وعيه التّامّ، مشلولًا من كلّ عضلات جسمه عدا عضلات العينين.

Twitter: @ketab_n

على الصوف الذهبيّ، واكتشاف أطلانطس، وتحقيق أحلام الطفل ومنامات الكهل.

وكاستراحة للتنويع، عليّ بالخصوص أن أؤلّف داخل رأسي الصفحات الأولى لهذه الرحلة الخالية من الحركة، كي أكون جاهزًا عندما يأتي مبعوث ناشري ليأخذها عن طريق الإملاء. فأعجن كلّ جملة عشر مرّات، أحذف كلمة، أضيف نعتا، وأحفظ نصّي عن ظهر قلب، فقرة بعد أخرى.

إنّها السابعة والنصف صباحا. تقطع ممرّضة القسم حبل أفكاري. تفتح الستارة، وفق طقس مضبوط جدّا، تتفقّد ثقب القصبة الهوائيّة والقطرة قطرة، وتشغّل التلفاز للاطّلاع على المستجدّات، فإذا هو ينقل حلقة صور متحرّكة عن قصّة أسرع علجوم في الغرب. ماذا لو أطلقت أمنية بأن أتحوّل إلى علجوم؟

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

الكرسيّ

لم أر من قبل مثل ذاك الكمّ من الميدعات البيضاء في غرفتي الصغيرة. الممرّضات، ومساعدو التمريض، وأخصّائيّ العلاج الطبيعيّ، وأخصّائيّ تقويم الأعضاء، وطبيب الأعصاب، والأطبّاء الداخليّون وحتّى رئيس القسم، المستشفى بأسره هبّ للمناسبة. لمّا دخلوا دافعين الكرسيّ المتحرّك حتّى سريري، خلتُ في البداية أنّ مستأجرًا جاء لاحتلال المكان، إذ منذ أقمت في «بارك» قبل عدّة أسابيع وأنا أتقدّم نحو سواحل الوعي يومًا بعد يوم، ومع ذلك لم أتمثّل بعد الرابط الممكن وجوده بيني وبين كرسيّ متحرّك.

لا أحد رسم لي صورة تامّة لحالتي. ومن خلال الأقاويل الملتقطة من هنا وهناك، نحتُّ لنفسي يقينًا بأنّني لن ألبث أن أعود سريعًا للحركة والكلام. بل إنّ روحي الجامحة هيّأت ألف مشروع: رواية، رحلات، ومسرحيّة إلى جانب تسويق خلطة غلال من اختراعي، ولا تطلبوا منّي تفاصيلها فقد نسيتها.

ألبسوني طقمًا جديدًا على الفور. «هذا جيّد للمعنويّات» أوضح طبيب الأعصاب. بعد ثوب النوم الأخضر المصنوع من النايلون، استمتعتُ بارتداء قميص ذي مربّعات وسروال قديم وصدار، يشي

Twitter: @ketab_n

منظرها بكابوس ارتدائها، أو بالأحرى كابوس احتوائها العسير لهذا الجسد الغضّ والمهتوك، والمليء بالتشوّهات. جسد لم يُلازمني إلاّ ليُذيقني الألم.

ما إن جهِزتُ حتّى انطلقت الطقوس. حملني شخصان من كتفيّ وقدميّ، رفعاني عن السرير، ثمّ وضعاني على الكرسيّ دونما فائق حرص. وهكذا بعد أن كنت مُجرّد مريض، صرت معوّقا، تمامًا مثل ما يحصل في مصارعة الثيران حين يتحوّل المصارع المبتدئ، باجتيازه للاختبار، إلى مصارع متمرّس. حسنًا لا أحد من «عرّابيَّ» صفّق لي ولكنّهما أخذاني في جولة عبر أروقة الطابق كي يتثبّتوا من أنّ وضعيّة جلوسي لن تتسبّب في تشنّجات تصعب السيطرة عليها، لكنّني بقيت هامدًا، مشغولاً بإجراء تقييم صارم لآفاقي المستقبليّة. فلم يجدا من حلّ غير إسناد رأسي بوسادة خاصّة، لأنّني ببساطة كنتُ قد تركته يتدلّى بطريقة تشبه ما يحدث للنسوة الإفريقيّات حين تُنزع عنهنّ حِلَقُ إطالة العنق بعد أن وضعنها لسنوات. «جلوسك على الكرسيّ جيّد» علّق أخصّائيُّ تقويم الأعضاء مُبتسما في محاولة لإضفاء طابع البشارة على كلماته، ومع ذلك كانت النبرة التي بلغت أذنيّ نبرةَ إلقاء حكم غير قابل للطعن، وللحظة كشفت الحقيقة المُرعبة عن وجهها دفعة واحدة، وإذا بها أسطع من انفجار ذرّي، وأحدّ من شفرة مقصلة.

تفرّق الجميع، وأعادني ثلاثة ممرّضين إلى وضعيّة الاستلقاء، كنت مُنشغلاً برجال العصابات في الأفلام السوداء، أولئك الذين يُشقيهم إدخال جثّة غريمهم في صناديق سيّاراتهم في حين أنهم كانوا قبل ذلك بقليل بصدد ثقب جلده.

Twitter: @ketab_n

تُرِكَ الكرسيّ عند الركن بإهمال، ومثله ملابسي المرميّة فوق ملفّ بلاستيكيّ أزرق غامق. قبل أن تخرج آخر ميدعة بيضاء، أشرتُ إليها بلطف أن تشعل التلفاز لأتابع برنامج «حروف وأرقام»، البرنامج المفضّل لأبي. في الخارج كان المطر الذي بدأ يهطل منذ الصباح يواصل النقر على زجاج النافذة.

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

الصّلاة

في النهاية، كانت صدمة الكرسيّ شافية. صارت الأمور أكثر وضوحا. كففتُ عن بناء المشاريع الوهميّة واستطعت أن أحرّر الأصدقاء من صمتهم، وكانوا قد بنوا من حولي سدّا عاطفيّا منذ وقوع الحادث. لم يعد الموضوع محرّما، بدأنا نتحدّث عن «متلازمة المنحبس» (م.م) باعتبارها حالة نادرة. ليس في ما سأقوله أيّ عزاء، ولكن بصراحة كان احتمال الوقوع في هذا الفخّ المقيت أكبر بكثير من إمكانيّة الفوز بالجائزة الكبرى للّوطو. في «بارك»، كنّا اثنين فقط حاملَيْن للأعراض، أو بالأحرى لمرضي المسمّى «م.م». هل كان هُناك ما يدعو للحيطة والحذر؟

خطئي أنّي كنت قادرًا على تحريك رأسي، وهو ما يُفترض ألاّ يقع إذا عُدنا بالنظر لجدول المُعاينة السريريّة. ولمّا كانت أغلب الحالات تُترك لمآلها الشبيه بحياة النبات، فقد ظللنا نجهل تطوّر هذا المرض. كلّ ما نعرفه أنّه إذا اعترت الجهاز العصبيّ نزوة السير مجدّدا، سيكون ذلك كنموّ شعرة منبتها المخّ. من المحتمل إذن أن تمضي بضعة أعوام قبل أن أتمكّن من تحريك أصابع قدميّ.

في الحقيقة، التحسّن الممكن والذي من المفترض أن أعمل على

Twitter: @ketab_n

إدراكه يخصّ مسالك التنفّس. فعلى المدى البعيد، بوسعنا أن نأمل في استرجاع تغذية أقرب إلى الطبيعيّة (دون الاستنجاد بالمسبار المَعِدي)، وتنفّس مُنتظم، ونفَس خفيف يُحفّز الحبال الصوتيّة. حاليًا سأكون أسعد الرجال عندما أتوصّل، وعلى نحو لائق، إلى بلع فائض اللّعاب الطافح به فمي طوال الوقت. لم يطلع النّهار بعد ومازلتُ أتمرّن على سحب لساني إلى مؤخّرة الحنك مُستثيرًا ردّة الفعل اللاّإراديّة الخاصّة بالبلع. زد على ذلك أنّني نذرت لحنجرتي أكياس البخور الصغيرة المعلّقة على حائطي، وهو نذر من اليابان جلبته لي صديقات مؤمنات كثيرات السفر. غدت الحجرة متحفًا للنصب التذكاريّة الخاصّة بطقوس الشكر، مُتحف أثّثته رحلات الأصدقاء بشكل عفويّ.

طبقًا لتنوّع الاختيارات، سينتهي الأمر بأن تستحضر لأجلي أرواح مقدّسة من مختلف الأنواع. وها إنّي أحاول أن أنظّم ازدحامها. لو أُشعرتُ بأنّي موضوع لحرق شموع في دير بريطانيّ أو لإنشاد «مانترا»[1] في معبد نيباليّ، فسأُحدّد على الفور هدفا لتلك التضّرعات الروحيّة.

تبعا لذلك استودعتُ مزارًا كامرونيًّا عيني اليمنى، كي ترعاها آلهة إفريقيّة رشّحتها لي إحدى الصديقات، أمّا في ما يخصّ مشاكل السمع فقد اعتمدتُ على العلاقات الطيّبة بين حَماتي ذات القلب التقيّ ورهابنة منتمين لـ«أخويّة» في بوردو، دأبوا على تكريس تسابيحهم لشخصي دوريّا، حتّى أنّي بين حين وآخر كنت أنفذُ إلى

---

(1) مانترا: هي كلمة سنسكريتيّة، تنتمي للحضارة الهنديّة، وتعني تعويذة صوتيّة أو كلمة أو جملة تُساعد على خلق تحوّلٍ نفسيٍّ.

Twitter: @ketab_n

أديرتهم لأسمع الأناشيد الصاعدة إلى السماء. لم يسفر ذلك عن أيّ نتيجة خارقة ولكن حين نحر متطرّفون إسلاميّون سبعة رهابنة من الطائفة نفسِها، شعرتُ بالألم في أذنيَّ لأيّام عديدة. غير أنّ كلّ أصناف الرعاية الفائقة تلك، ستكون أشبه بمتاريس من طين، وأسوار من رمل، بل وبتحصينات «ماجينو»[1] الواهية، إذا ما قورنت بالصلاة الصغيرة لابنتي سيليست، تتلوها كلّ مساء أمام الربّ قبل أن تغمض عينيها. وبما أنّنا نرقد في نفس الوقت، فإنّي أركب إلى مملكة الأحلام مُحاطاً بتلك الدعوات الخارقة، فتجنّبني كلّ اللّقاءات المؤذية.

(1) خطّ ماجينو: هو حصن دفاعي شيّدته فرنسا، بعد الحرب العالميّة الأولى، لدفع أيّ هجوم محتمل. ولكنّه فشل مع أوّل اختبار جدّي أمام القوّات الألمانيّة في الحرب العالميّة الثّانية عرف فشلا ذريعا.

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

الحمّام

تصل «بريجيت» اختصاصيّة العلاج الطبيعيّ في الثامنة والنصف. بطيفها الرياضيّ وسحنتها الشبيهة بعملة رومانيّة. هي هنا لتنشيط رجليّ وذراعيّ المصابتين بالتصلّب. نسمّي هذا «استنفارًا»، مصطلح عسكريٌّ يدعو للسخرية بالنظر إلى هُزال الفوج: ثلاثون كيلوغراما فُقدتْ في عشرين أسبوعًا. ما كُنت لأدرك نتيجة كهذه قبل الحادثة لو أنّني اتّبعت نظام حمية قاسيًا لثمانية أيّام. ترصد بريجيت عند مرورها أيّ اختلاج يمكن أن يشي بتحسّن ما. «حاول أن تضغط على قبضتي» تقول لي. واستجابة لما يعتريني أحيانًا من وهمِ توتّر أصابعي، أركّز طاقتي على دقّ عظام أصابعها، ولكن لا شيء يتحرّك. بعد ذلك تضع يدي الباردة على مربّع اسفنجيّ يستعملونه كعلبة. في الحقيقة، التغييرات الوحيدة الحاصلة تخصّ رأسي. بإمكاني من الآن فصاعدا تحريكه تسعين درجة ليمتدّ مجالي البصريُّ من سقف المبنى المجاور إلى صورةٍ للطريف «ميكاي» وهو يخرج لسانه رسمها ابني ثيوفيل، عندما كنت عاجزًا عن فتح فمي.

بفضل التمرين المُستمرّ اقتربنا حاليًا من مرحلة إيلاج مصّاصة. وكما صرّح طبيب الأعصاب «يلزم الكثير من الصبر». وتُختتم حصّة

Twitter: @ketab_n

العلاج الطبيعيّ بتدليك للوجه. تجول بريجيت بأصابعها الفاترة على كامل وجهي، تلك البقعة الجدباء التي تبدو لي في صلابة رقّ والجزء المُتوتّر عند الحاجب، والذي ما أزال إلى الآن قادرًا على تقطيبه. بينما على الخطّ الحدوديّ المار بفمي لا يسعني إلاّ أن أرسم نصف ضحكات، تتلاءم بقدرٍ كافٍ وتقلّبات مزاجي. من ذلك، أنّه يمكن لأفعال اعتياديّة كقضاء الحاجة أن تلهمني أحاسيس متنوّعة.

في يوم بعينه، يبدو لي مضحكًا أن صرت وأنا في الرابعة والأربعين أُحَمَّمُ، وأُقلبُ، وتُمسحُ عنّي الأوساخ، وأُقمّط مثل رضيع. بل وقد يُشعرني ذلك -في ارتداد طفوليّ كامل- بلذّة محيّرة . ثمّ يأتي الغد فيبدو لي كلّ ما سلف مدعاة للشفقة، وتختلط دمعتي برغوة الحلاقة، أثناء نشر مساعد التمريض لها على خدودي. أمّا الاستحمام الأسبوعيّ، فيغرقني في مزيج من الضيق والابتهاج في آن. فاللذة المُقترنة بلحظة الغطس في حوض الاستحمام سُرعان ما يعقبها حنين إلى اللهو بالماء، مُتعتي الخالصة في حياتي السابقة. مُمسكًا بفنجان شاي أو بكأس ويسكي، بكتاب جيّد أو برزمة جرائد، كنتُ أتسلّى طويلاً بحلّ الحنفيّات بأصابع قدميّ. قليلة هي تلك اللحظات التي أشعر عند استحضار مُتعها بفظاعة واقعي الراهن. من حسن الحظّ أنّي لا أملك الوقت لإغراقي في الكآبة.

هاهم يحملونني إلى غرفتي مُرتعشًا، على نَقّالة مريحة كلوحٍ ذي مسامير. فعند الساعة العاشرة والنصف عليّ أن أكون مكسيًّا من رأسي حتّى أخمص قدمي، جاهزًا للهبوط إلى قاعة إعادة التأهيل. كنت قد رفضت البذلة الرياضيّة المقترحة من طرف الدار، لأستعيد

Twitter: @ketab_n

أسمال الطالب المعوّق. لصدريّاتي القديمة الطراز أن تفتح مسارات مؤلمة في ذاكرتي. ومع ذلك أنا أرى فيها رمزًا لاستمراريّة الحياة، والدليل أنّني باستعادتها إنّما أسعى لاستعادة ذاتي.

ولو سال منّي اللّعاب قسرًا، فالأفضل أن يسيل على الكشمير.

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

الأبجديّة

حين يجنّ اللّيل، ويكون حالك السواد، ولا يبقى من أثر للحياة سوى النقطة الصغيرة الحمراء المنبعثة من التلفزيون المغلق، (علامة على سريان الكهرباء فيه). أمتلئ عشقًا لحروف أبجديّتي. صوامت وصوائت تتراقص لأجلي على إيقاع «فراندول»[1] لشارل تينيت: «من البندقيّة، المدينة الشهيّة، استبقيت ذكرى لطيفة...» ثمّ تخترق الغرفة يدًا بيد، تدور حول السرير، تقترب من النافذة، تتغنّج أمام الحائط، تصل عند الباب لتعاود الانطلاق من أجل لفّة جديدة.

ESARINTULOMDPCFBVHGJQZYXKW[2]

هذه الفوضى الظاهرة المحيقة بالعرض المرح ليست وليدة الصدفة وإنّما هي نتاج حسابات ذات دلالة عميقة، ففضلا عن كونها أبجديّة، هي لعبة تفاضليّة يُعمد فيها إلى تبويب كلّ حرف حسب تكراره في اللّغة الفرنسيّة. وتبعًا لذلك، يدور الـ E في رأسي ويستميت الـW كي لا تقذف به المجموعة. بينما الـ B مستاء لإبعاده قرب الـV، فأنا أخلط بينهما دون توقّف. الـ J المتكبّر مذهول بسبب مركزه البعيد،

---

(1) فراندول: هي رقصة وموسيقى راقصة شعبيّة، تُعتبر الأقدم والأعمق تعبيرًا عن ثقافة منطقة «بروفنس» بجنوب شرق فرنسا.

(2) الأبجديّة الفرنسيّة الأصليّة:

ABCDEFGHIJKLMNOPQRSTUVWXYZ

Twitter: @ketab_n

وهو الذي تبدأ به عديد الجمل. يتحامق الـ G، مغتاظا بعد أن أزاحته الـ H من مكانه، ومع حضورهما الدائم في أنا وأنت تعيش الـ T والـ U متعة نؤيهما عن التفرقة. لإعادة ترتيب الأبجديّة من جديد سبب وجيه: تسهيل مهمّة من يحاولون التواصل المباشر معي.

كان أسلوبًا بدائيًّا جدًّا. تُنثر عليَّ الأبجديّة وفق نظام ESA إلى أن أستوقف محدّثي برمشة عين واحدة إشارة للكلمة المتوجّب عليه تسجيلها. ثمّ نكرّر الأمر نفسه لتحصيل الأحرف الموالية، وإذا لم تكن هنالك أخطاء، نتحصّل سريعا على كلمة تامّة، ومن ثمّ مقاطع جمل واضحة. تلك هي النظريّة: طريقة الاستعمال والدليل التفسيريّ. بعد ذلك تأتي الحقيقة، ارتباك البعض وحسن إدراك آخرين، لم يكونوا متساوين كلّهم أمام الشيفرة (وهو الاسم الذي نطلقه على طريقة ترجمة أفكاري)، عاشقو الكلمات المتقاطعة و«السكرابل» لهم الأفضليّة، والبنات أشطر من الأولاد. بفعل المُمارسة، بعضهنّ يحفظن اللّعبة عن ظهر قلب، حتّى أنّهن استغنين عن الكرّاس المقدّس المقسوم نصفين، نصف للتذكير بترتيب الحروف، ونصف لتدوين ما التُقط من أفكاري، مثلما دُوّن وحي بيثيا[1].

أتساءل حقًّا عمّا سيتوصّل إليه علماء الأعراق عندما يتصفّحون هذه الدفاتر، وفيها نجد جنبا إلى جنب بالصفحة نفسها وبفوضويّة تامّة جُمَلاً مثل: «أخصّائيّة العلاج الطبيعيّ حبلى»، «خصوصا عند الساقين»، «هذا هو أرتور رامبو»، «تظاهر الفرنسيّون بالفعل أنّهم

---

(1) بيثيا: هي الوسيط الرّوحي وكاهنة الإله أبولو في الميثولوجيا اليونانيّة وصاحبة الفضل في التّحدّث بالنبوءات.

Twitter: @ketab_n

خنازير». السياق مقطوع بخربشات غير مفهومة، كلمات سيئة التركيب، حروف ضائعة، ومقاطع لفظيّة مهملة.

من سمات العواطف أنّها تنفلت سريعًا، وبصوت مختنق لا يكاد يُسمع تحيد بالأبجديّة عن مسارها، بضع أحرف لسعادة مؤقّتة، بعدها، وأمام نتيجة بلا ذَنَب ولا رأس، سأجد نفسي أصرخ بجسارة «أنا تافه!». آخر المطاف يغدو الأمر مُريحًا، إذ تتكفّل العواطف بالمحادثة بأكملها، تصنع الأسئلة والأجوبة دون أن تكون هناك ضرورة لإعادة طرحها. فأنا كثير الخشية من المُتملّصين، إذا سألتُ «كيف حالكم؟»، يجيبون «بخير» ويعيدون الأمر لي على الفور. تصبح الأبجديّة معهم عبارة عن عمليّة قصف عشوائي، عليك أن تُهيِّئ سؤالين أو ثلاثة مسبقا حتّى لا تغرق. أمّا المجدّون، فلا يخطئون بالمرّة، يدوّنون كلّ كلمة بدقّة فائقة ولا يبحثون البتّة عن سبر غور جملة قبل اكتمالها، إذ لا مجال لاستكمال أدنى كلمة. أقسموا بأغلظ الأيمان ألاّ يضيفوا من تلقاء أنفسهم الـ«جار» للـ«انف»، الـ«رّي» التي تلي «الذر» والـ«غير» التي من دونها لا وجود لـ«غير مُنتَهٍ» أو «غير محتمل». قد يجعل هذا التمشّي الأمر أكثر إملالاً، ولكنّه على الأقلّ يضمن لنا تفادي التفسير الخاطئ، فكثيرًا ما أوقع المتسرّعين في الوحل إذا هم تجاهلوا التحقّق من حدسهم.

غير أنّني أدركت شعريّة هذه الألعاب الذهنيّة يوم هممت بطلب نظاراتي، فسألوني مازحين «ماذا تريد أن تفعل بالقمر؟»[1].

---

(1) القمر بالفرنسيّة «Lune» والنظّارات «Lunettes».

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

الإمبراطورة

لا توجد في فرنسا أماكن كثيرة يمكن من خلالها استحضار ذكرى الإمبراطورة «أوجيني».

في الرواق الكبير للمستشفى البحريّ -وهو فضاء واسع يتردّد فيه الصوت بسهولة- بوسع العربات والكراسي المتحرّكة أن تسير متجاورةً، خمسة لكلّ صفّ. أمّا الجزء الأماميّ للمبنى فتشي واجهته بأنّ زوجة نابوليون الثالث كانت عرّابة للمؤسّسة. وهناك أيضًا المَعلَمَان الرئيسيّان للمتحف الصغير وهما: تمثال نصفيّ من الرخام الأبيض يعيد للمخلوعة صاحبة الجلالة نضارة شبابها، وهي التي بلغ سنّها عند وفاتها 94 عامًا، وحدث ذلك بعد انقضاء نصف قرن على نهاية الإمبراطوريّة الثانية؛ ورسالة نائب رئيس محطّة القطارات بـ«بارك» إلى مدير المراسلات البحريّة، والتي يحدّثه فيها عن الزيارة الإمبراطوريّة بتاريخ 4 ماي 1864. فنرى رؤية العين وصول القطار الخاصّ، وفتيات فرقة الباليه المرافقات لأوجيني، وعبور الموكب البهيج للمدينة ثم المستشفى وتقديم المرضى من الأطفال إلى حاميتهم الموقّرة. لفترة من الزمن، لم أفوّت فرصة لإظهار إخلاصي أمام هذه الآثار.

Twitter: @ketab_n

قرأت قصّة عامل سكّة الحديد عشرين مرّة، واختلطت بجمهرة النبيلات الثرثارات، ما إن تمرّ أوجيني من جناح لآخر، حتّى أتابع قبّعتها ذات الأشرطة الصفراء، مظلّتها الصغيرة المصنوعة من التفتا، وأثرها العابق ببهاء الكولونيا المُنتقى بعناية من قبل عطّار القصر. تجرأت في يوم عاصف على الاقتراب منها ودفن رأسي في طيّات فستانها الشاشيّ الأبيض ذي الشرائط الملساء. كان ناعمًا مثل القشدة المخفوقة، وأكثر إنعاشًا من الندى الصباحيّ. لم تصدّني. خلّلت أصابعها في شعري وقالت لي «هيّا بنا بُنيّ، عليك أن تكون أكثر صبرًا». قالتها بلكنة إسبانيّة تشبه لكنة طبيبة الأعصاب. لم تكن إمبراطورة الفرنسيّين بل قدّيسة معزّية، على طريقة القدّيسة ريتا[1]، متعهّدة القضايا الخاسرة.

ذات مساء، وبينما كنت أبوح بأحزاني لتمثالها، إذ بوجه غير معروف يظهر ويحول بيني وبينها. في انعكاس الواجهة الزجاجيّة، لمحت رجلاً خُيّل إليّ أنّه أقام في برميل من الديوكسي[2] بفمه الملتوي، وأنفه المدعوج، وشعره المنكوش ونظرته الطافحة فزعًا. وبعين مخيّطة وأخرى واسعة كعين قابيل. ثبّتُّ بؤبؤي عليه لدقيقة كاملة، دون أن أُدرك أنّ ذلك الشيء كان ببساطةٍ أنا.

شعرت بغبطة غريبة. لم أكن منفيًّا، ومشلولاً، وأبكمَ، ونصف

(1) القدّيسة ريتا: 1381م - 1457م. وتُسمّى أيضًا ريتا دي كاشيا (شفيعة المستحيلات) قدّيسة تابعة للجماعة الأوغسطينيّة. في سنة 1628م، أعلنها البابا أوربان الثّامن طوباويّة. وفي سنة 1900م، أعلنها البابا لاون الثّالث عشر قدّيسة.

(2) الدّيوكسين: مادّة كيميائيّة ناتجة عن احتراق جزئيّات الكلور أو تعرّضها لدرجات حرارة عالية، وهي من أخطر المواد السّامّة على وجه الأرض.

Twitter: @ketab_n

أصمّ، ومحرومًا من كافّة الملذّات، ومختصرًا في كيان قنديل بحرٍ فحسب، بل كنت علاوة على ذلك كلّه بشعًا. انتابتني هستيريا من الضحك، قرّرت أن أتعاطى مع لطمة القدر الأخيرة كدعابة ولكنّ الأمر انتهى إلى ركام من المصائب. في البدء أُحرجت أوجيني من الخرخشات الناجمة عن مرحي، لكنّها سُرعان ما تركت نفسها لعدوى الابتهاج. ضحكنا معا حتّى البكاء. بدأت الفرقة النحاسيّة البلديّة بعزف «الفالس» فبلغت من السرور أن كُنت على استعداد لدعوة أوجيني إلى الرقص، لو أتاحت لي الظروف مثل تلك الفرصة لرفرفنا كيلومترات على البلاط. منذ تلك الأحداث، صرت كلّما أمرّ بالرواق الكبير، أرى على وجه الإمبراطورة مسحة من السخرية.

Twitter: @ketab_n



Twitter: @ketab_n

سينيشيتا

يُمثّل المستشفى البحريّ، للطائرات الفائقة الخفّة والصخب، والمحلّقة على ارتفاع مائة متر فوق ساحل «الأوبال»[1]، موضوعًا فُرجويًّا مدهشا. بأشكاله المكثّفة والمعقّدة، وحيطانه العالية المبنيّة بالآجر البنيّ على طراز منازل الشمال، يبدو مُلقًى وسط الرمال بين مدينة بارك ومياه «المانش»[2] الرماديّة.

على قوصرة أجمل الواجهات، بإمكاننا أن نقرأ عبارة «مدينة باريس»، والأمر سيّان مع الحمامات العموميّة والمدارس المحليّة. أنشئ هذا الملحق زمن الإمبراطوريّة الثانية وخُصّص للأطفال المرضى المفتقدين للمناخ المُلائم في المستشفيات الباريسيّة، ولقد احتفظ بموقعه القصيّ من الإقليم. أي أنّنا كنّا جغرافيًّا داخل «البادو كاليه»[3]، وخدماتنا العموميّة على ضفاف السين.

تشكّل المباني، المرتبطة بممرّات لا نهاية لها، متاهةً حقيقيّةً. حتّى

(1) هي منطقة ساحليّة فرنسيّة مفتوحة جنوبًا على بحر المانش وبحر الشّمال.

(2) المانش أو قناة بحر المانش: هو جزء من المحيط الأطلسي بين فرنسا وبريطانيا، يربط بحر الشّمال بالمحيط الأطلسي.

(3) بفرنسا، وهي منطقة ذات خصوصيّات ثقافيّة وعاصمتها «ليل». تمثّل مع ولاية «الشّمال» الولايتين المكوّنتين «لجهة الشّمال وبادو كاليه».

Twitter: @ketab_n

أنّه من العاديّ أن تعترض مريض «مينار» ضالاً في «سوريل»، (والاسمان لجرّاحين ذائعيْ الصيت، ولكنّهما صارا يدُلّان على جناحي المستشفى الرئيسيّين) فينظر إليك المسكين نظرة طفل انتُزع توّا من أمّه، مرتعشًا على عكاز ومطلقًا عبارات مثيرة للشفقة «إنّي ضائع!!».

كنتُ واحدا من السوريل، على حدّ تعبير حاملي النقّالات، شعرت معهم براحة كافية، لكن ليس باستمرار إذ كان من بين الأصدقاء من لا يُحسنون نقلي، أمّا ارتجال المبتدئين وما يترتّب عنه من إضاعة الطريق فلطالما واجهته برصانة. قد تكون فرصة لاكتشاف خلوة غير معلومة، أو للتعرّف على وجوه جديدة أو لعبِّ رائحة ما عند المرور بالمطبخ. كذلك جرى عثوري على الفنار في واحدة من المرّات الأولى التي عُمد فيها لنقلي على كرسيّي المتحرّك إثر استفاقتي من الغيبوبة مباشرة. كنت ومُرافقي تائهين عند المنعطف المحاذي للدرج حين ظهر، ممشوقًا، صلبًا، ومطمْئِنًا بكسوته ذات الخطوط الحمراء والبيضاء الشبيهة بأقمصة لاعبي الرقبي. وعلى الفور وضعت نفسي تحت حماية رمز الأخوّة هذا، الراعي للبحّارة، رعايته للمرضى، غرقى الوحدة.

أصبح ارتباطنا وثيقًا، وكثيرًا ما كنت أزوره ليدلّني على شينيشيتا. شينيشيتا، رقعة أساسيّة في جغرافيّتي المتخيَّلة للمستشفى. شينيشيتا، هي الشرفات الواسعة لجناح سوريل، الشرفات الخالية باستمرار. والمفتوحة -باتجاه الجنوب- على بانوراما ينبع منها السحر الشعريّ والفريد نفسه لديكورات السينما. لضواحي بارك هيئة مجسّم قطار كهربائيّ. وبعض الثكنات عند سفح الكثبان، قد يُخيّل لك أنّها مدينة

Twitter: @ketab_n

أشباح من الغرب الأمريكي. وفوق ذلك يبدو زبد البحر لشدّة بياضه كما لو أنّه ناجم عن شعاع ضوء مُصطنع.

في شينيشيتا، يمكن أن أبقى أيّاما بأكملها. هنا أكون أعظم مخرج سينمائيّ لكلّ الأوقات. باتّجاه المدينة، أصوّر المشهد الأوّل من فيلم «التعطّش إلى الشرّ»[1]. على الشاطئ، أعيد ترافلينغ «عربة الجياد»[2]، وفي عرض البحر أعيد خلق عاصفة المهرّبين بـ«مونفليت»[3]. أو على نحو آخر أذوب بالمشهد الطبيعيّ، فلا يربطني بالعالم شيء إلاّ يد صديقة تلاطف أصابعي الصقعة. أنا بيرو المجنون[4]، بوجه مبقّع بالأزرق ومسبحة من الديناميت تحيط رقبته. الرغبة بطقطقة عود ثقاب تمرّ بسرعة غيمة. ثمّ تأتي ساعة انسحاب النهار.. ساعة انطلاق آخر قطار نحو باريس، وساعة عودتي إلى غرفتي مُرغمًا.

سأنتظر الشتاء. حين يأتي سأتدثّر بإحكام، لنتسكّع حتّى اللّيل متابعين غروب الشمس، لحظةَ يتولّى الفنار نثر بَوَارق أمل على كلّ الآفاق.

---

(1) التعطّش إلى الشّر: فيلم أمريكي بوليسي شهير للمخرج أورسن ويلز، عُرض في القاعات لأوّل مرّة سنة 1958م.

(2) عربة الجياد: فيلم من نوع أفلام رعاة البقر للمخرج جون فورد، صدر سنة 1939م.

(3) مونفليت: هي رواية من تأليف الرّوائي جون ميد فولكنر، نُشرتْ سنة 1898م تتناول قصّة معاشرة شابّ للمهرّبين، ومن ثمّة تحوّله هو بدوره إلى مهرّب. وقد اقتبس من الرّواية عديد الأعمال الدّراميّة ومنها فيلم مهرّب مونفليت الصّادر سنة 1955م، وهو من إخراج فريتزلانغ.

(4) بيرو المجنون: هو فيلم فرنسي للمخرج جون لوك غودار، صدر سنة 1965م.

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

السيّاح

بعد أن استقبل بارك، في اليوم التّالي للحرب[1]، الضحايا الصغار لمهلكة السلّ الأخيرة، شيئا فشيئا تخلّى عن ارتباطه بالأطفال. وبات اليوم يُواجه مآسي الهرم من أعطاب الجسم والنفس، لكنّ طبّ الشيخوخة ليس إلاّ جزءًا من اللوحة التي علينا رسمها لتحصيل فكرة دقيقة على نزيلي المؤسّسة.

هنالك قرابة عشرين حالة غيبوبة دائمة أعلى طرف الجدول، شياطين بائسة ممدّدة في ليل بلا نهاية، على عتبات الموت. هم لا يغادرون حجراتهم البتّة، غير أنّ الناس جميعًا يعلمون أنّهم هنا يثقلون المجتمع بحمل غريب كتأنيب الضمير. في المقابل، بجانب جالية المسنّين المهملة، تُطالعنا السحنات المنهكة لبعض مرضى السمنة ممّن يأمل الطبّ تقليص قياساتهم المُعتبرة. وفي الوسط، كتيبة عُرجٍ مثيرة للاهتمام تشكّل القسم الأكبر من النزلاء. وأفرادها الخارجون من حوادث الرياضة والطريق ومن كلّ أنواع الحوادث المنزليّة الممكن تخيّلها، يقيمون ببارك ما يكفي من الوقت لجبر أعضائهم المكسورة ثمّ يرحلون. لذا سمّيتهم «السيّاح».

(1) المقصود هو الحرب العالميّة الأولى.

Twitter: @ketab_n

ختامًا، إذا أردنا لهذه اللّوحة أن تكتمل، وجُب البحث عن ركن يصلح لطيور بأجنحة مقطوعة، ولببّغاوات بلا صوت، ولـ«غربانِ البين». ولقد هُيّئت لنا «أعشاش» بالممرّ الواقع عند نهاية قسم الأعصاب. بطبيعة الحال كُنّا نُفسد المشهد. أعرف جيّدا ذلك الإحساس بالكآبة الذي يُخلّفه مرورنا الثقيل والصامت بحلقة مرضى أقلّ تلفًا.

تمثّل قاعة العلاج الطبيعيّ -وبها يختلط كلّ المرضى المعنيّين بإعادة التأهيل- أفضل موقع لملاحظة هذه الظاهرة. إنها ساحة حقيقيّة لمعجزات صاخبة وملوّنة.

وسط قرقعة الأعضاء الاصطناعيّة والجبائر والأجهزة المعقّدة إلى حدّ ما، يتجاور شابّ ذو أقراط في الأذن محطّم من حادثة درّاجة ناريّة، وجدّة ببذلة رياضيّة برّاقة بصدد تعلّم المشي مُجدّدًا، بعد سقطة من على سلّم نقّال، وشبهِ متشرّد لم يفهم أحد كيف اقتلع المترو قدمه. تحرّك هذه الحشود المصطفّة بالترتيب من الأكبر إلى الأصغر، أذرعها وسيقانها تحت رقابة مُتساهلة، بينما أكون مُثبّتًا إلى آلة ذات وضع مائل تحرّك تدريجيًا إلى الوضع العموديّ، وهكذا أقضّي كلّ صباح نصف ساعة من التدلّي، في تخشّب يُذكّر بظهور تمثال «الآمر» في الفصل الأخير من «دون خوان» لموزارت. في الأسفل، واحد يضحك، وآخر يمزح وثالث يطرح تساؤلات. أودّ أن أحصل على نصيب من كلّ هذا المرح، لكن ما إن أضع عيني الوحيدة عليهم: الشاب والجدّة والمتشرّد، حتّى يُشيحوا بوجوههم استجابة لرغبة طارئة في تأمّل طفاية الحرائق المثبتة إلى السقف. يبدو أنّ «السيّاح» شديدو الخوف من النار!

Twitter: @ketab_n

السجق

كلّ يوم بعد حصّة الوضع العمودي، يتمّ أخذي من قاعة العلاج الطبيعيّ على نقّالة، فيركنني حاملها إلى جانب سريري بانتظار وصول مُساعدَيْ التمريض ليعيدوني إلى تمدّدي. وكلّ يوم أيضًا، عند منتصف النهار يرميني حامل النقالة نفسه في مرح مصحوب بـ«شهيّة طيّبة». طريقة يُعبّر بها عن أخذه إجازة حتّى يوم الغد. يشبه هذا بالطبع تهنئة بعيد الميلاد يوم 15 أُوت أو «تصبح على خير» في وضح النهار!!

منذ ثمانية أشهر، لم يتجاوز مُجمل ما ابتلعته بعض قطرات من الماء المخلوط باللّيمون ونصف ملعقة من الزبادي، عَبَرتْ خطأً إلى مسالك التنفّس مُصدرة أصواتًا غريبة. الاختبار الغذائيّ، مثلما اصطلحنا على تسمية هذه الوليمة بشيء من التفاصح، لم يبد حاسمًا. ولتطمئنّوا، لم أمت من الجوع رغم كلّ ذلك. إذ كانوا يؤمّنون لي حصّتي اليوميّة من السعرات الحراريّة عن طريق أنبوب مربوط بالمعدة وقنّينتين صغيرتين أو ثلاث من مادّة بنيّة اللّون.

لأجل المتعة، استعنت بذاكرتي الحيّة للمذاقات والروائح، خزّان الحواس الذي لا ينضب. ثمّ هناك فنّ تجهيز ما تبقّى. حين أنغمس

Twitter: @ketab_n

فيما يمكن اعتباره طهوًا للذكريات، يمكن أن أجلس على المائدة متى أشاء ودون كُلفة. إن كان هذا في مطعم، فلا حاجة إلى الحجز، أمّا إذا افترضنا أنّني بصدد الطبخ، فستكون النتيجة رائعة على الدوام. الحساء البورغيني[1] الدسم، لحم البقر المجمّد والشفاف، وفطيرة المشمش بقليل من الحموضة اللاّزمة. أهب نفسي -وفق مزاجي- دزينة من الحلازين وطبقًا مُنمّقًا من الملفوف المخلّل وزجاجة من نبيذ غيورتزترامينر «خمرة المحاصيل المتأخرة» بلونه الذهبيّ، أو أتذوّق ببساطة بيضة مسلوقة مصحوبة برقائق خبز مطليّة بزبدة مالحة. يا لها من لذّة!! يغزو صفار البيض الحنك وتقتحم البلعوم سيلانات دافئة. من المؤكّد أنّي سأستعمل أفضل المنتوجات: الخضار الأكثر طزاجة، الأسماك الخارجة لتوّها من البحر واللّحوم الأغنى دهنيّات. كلّ شيء يجب أن يكون معدّا حسب القواعد. لمزيد الاطمئنان، أرسل لي أحد الأصدقاء الوصفة الأصليّة لسجق طروادة، مع ثلاثة أنواع مختلفة من اللّحوم ملويّة كالسيور.

كذلك، سأحترم نظام الفصول بدقّة تامّة. في الوقت الراهن أنعش حُليْمات لساني الصغيرة بجرعات من قطع البطّيخ والتّوت، أمّا المحار والطرائد فسيأتي دورها في الخريف، إذا احتفظت بشهيّتي، لا سيّما وقد صرت متعقّلا، إن لم أقل زاهدا. في بداية صيامي الطويل، دفعني الفقد إلى زيارة حجرة المؤن الخياليّة الخاصّة بي دون توقّف. كنتُ في غاية النهم. في حين يمكنني الآن أن أقنع بسجق

---

(1) البورغيني: نسبة إلى بورغونيا، وهي منطقة في وسط شرق فرنسا، ذات شهرة كبيرة في ميدان الطّبخ.

Twitter: @ketab_n

تقليديّ محشوّ بقطعة لحم، معلّقٍ باستمرار في ركن من رأسي، السجق الليونيّ[1] ذي الشكل المغاير للمألوف، بما يحتويه من لحم مُحكم التجفيف والهرس. كلّ شريحة تتحلّل قليلًا فوق لساني قبل أن أمضغها، لتبوح بنكهتها. هذا الإحساس باللّذة هو أيضًا شيء مقدّس، ممارسة يعود تاريخها إلى أكثر من أربعين عامًا. كنتُ حينها في سنّ التهام الحلوى لكنّني حاليًا أفضّل عليها اللّحوم، ولاحظت ممرّضة جدّي -من طريق أمّي- أنّي خلال زياراتي إلى الشقة المشؤومة بشارع «راسباي» كنت في كلّ مرّة أطلب منها سجقًا، وأنا ألثغ بطريقة مُحبّبة. ولمّا كانت ماهرة في استغلال شره الأطفال والمسنّين على حد السواء، فقد انتهت هذه المدبّرة المجتهدة إلى تنفيذ رمية مزدوجة عبر إهدائي السجق والزواج من جدّي قبل موته بقليل. كانت الفرحة بالحصول على هديّة كهذه متناسبة مع ما خلّفه هذا الزواج المفاجئ من توتّر وسط العائلة. لم أحتفظ من جدّي إلاّ بصورة مبهمة، طيف ممدّد في الغسق بوجه صارم كوجه «فيكتور هوغو» على أوراق النقد القديمة، من فئة 500 فرنك، التي كانت مستعملة في تلك الفترة. في المقابل أرى بأكثر وضوح السجق المحشور حشرًا وسط «الدينكي تُويز»[2] الخاصّ بي وبين كتبي من سلسلة المكتبة الخضراء. وأخاف كثيرا ألاّ آكل مُستقبلًا أطيب منه.

(1) السجق الليوني: نسبة إلى مدينة ليون الفرنسيّة.

(2) الدّينكي تويز: ماركة لُعب اشتهرت بإنتاجها مجسّمات صغيرة للسيّارات والشّاحنات وأحيانا للطّائرات.

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

الملاك الحارس

كُتِب على الشارة المثبتة على الميدعة البيضاء لساندرين: «أخصائيّة النطق»، ولكن وجب قراءتها: الملاك الحارس. هي من وضعت شفرة التواصل التي لولاها لعُزلت عن العالم. للأسف!! لئن تبنّى كلّ أصدقائي هذا النظام بعد المِران، فهنا في المستشفى، لا أحد يُمارسه سوى ساندرين واختصاصيّة علم النفس. أغلب الوقت لم أكن أملك سوى ذخيرة هزيلة من الإيماءات والغمزات وهزّات الرأس طلبًا لغلق الباب، أو لإصلاح شافط دورة المياه، أو لخفض صوت التلفاز أو لإعادة وضع الوسادة. وطبعًا لم أنجح في كلّ المحاولات.

بمرور الأسابيع، جعلتني وحدتي القسريّة أكتسب بعض الرصانة وأفهم أنّ البشر في المستشفيات ينقسمون إلى نوعين. أغلبيّة لا يتخطّون العتبة دون محاولة تأمّل إشارت الاستغاثة SOS، والآخرون الأقل ضميرًا يغادرون مدّعين أنّهم لم يلحظوا تلك الإشارات، مثل ذلك الأبله الظريف الذي أطفأ التلفاز دون استئذان، أثناء بث مقابلة كرة قدم بين بوردو وميونيخ ما يزال فيها شوط كامل، ليتكرّم عليّ بـ«تصبح على خير».

بعيدًا عن صعوبات التطبيق، كان لتعطّل التواصل وطأته عليّ.

Twitter: @ketab_n

لذا لم أكن أشعر بالسلوى سوى مرّتين في اليوم، عندما تدقّ ساندرين الباب، وتدخل -بسحنة سنجاب أُخذ على حين غرّة- لتطرد دفعة واحدة كلّ الأرواح الشريرة، فتغدو بذلة الغوص الخفيّة التي تقيّدني طوال الوقت أقلّ ثقلا.

أعتقد أنّ علم علاج النطق علم جدير بالمُتابعة. لن تتخيّل الحركات الجمبازيّة المؤدّاة آليّا من طرف لسانك لإنتاج كلّ تلك الأصوات في اللّغة الفرنسيّة. في الوقت الحاليّ أعاند الـ«L»[1]، مسكين رئيس التحرير الذي لم يعد يُحسن لفظ اسم مجلّته.

في أيّام الحظّ، أجد الجهد والطاقة لأجهر -بين سعلة وأُخرى- ببعض المقاطع الصوتيّة. نجحت ساندرين يوم عيد ميلادي في إنطاقي الأبجديّة بشكل جليّ. كانت أفضل هديّة ممكنة. سمعت الستّة وعشرين حرفًا المُجتثّة من العدم تُلفظ بصوت مبحوح آت من أعماق العمر. خلّف فيّ هذا التمرين الشاقّ انطباعًا بأنّي رجل كهوف بصدد اكتشاف اللّغة. أحيانا كان الهاتف يقطع أعمالنا. هل أستعين بساندرين لأتمكّن من مهاتفة بعض المقرّبين وأقبض على بقايا الحياة الطائرة كمن يوقع بفراشة؟

تقصّ عليّ ابنتي سيليست -وسنحتفل بعد خمسة أشهر بعيد ميلادها التاسع- تفاصيل طوافها على ظهر فرس قزم. بينما يفسّر لي أبي الصعوبات التي يلقاها كُلّما حاول الوقوف على ساقيه لا سيّما وأنّه الآن يتخطّى بشجاعة عامه الثالث بعد التسعين. هما الحلقتان الأخيرتان من سلسلة الحبّ التي تحيطني وتحميني. أتساءل باستمرار

---

(1) كان رئيس تحرير مجلة فرنسيّة «ELLE» يشبه نطق اسم مجلّته حرف L.

Twitter: @ketab_n

عن مدى تأثير هذه الحوارات ذات الاتّجاه الواحد على مُحاوريَّ. أمّا أنا، فتوقعني مكالماتهم الرقيقة في حيرة. إذ أريد أن أقابلهم بشيء آخر غير صمتي. من جهة أخرى، هناك من يجد الأمر غير قابل للاحتمال. الرقيقة فلورنس مثلًا لا تكلّمني إلاّ إذا تنفّستُ بصوت مسموع في السمّاعة الموضوعة من قِبل ساندرين على أذني «جان دو، هل أنت هنا؟» تعبّر فلورنس عن قلقها عبر الهاتف.

وعليّ الاعتراف بأنّني في أحيان كثيرة لا أملك إجابة قاطعة.

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

الفوتوغرافيا

ما يزال مشهد حَلقي لأبي في آخر مرّة التقيته راسخًا في ذاكرتي. جرى ذلك خلال الأسبوع الذي تعرّضت فيه للحادث، كان يعاني كثيرا. فقضّيت اللّيلة عنده في شقّته الباريسيّة الصغيرة والقريبة من حديقة التويلري. وفي الصباح، بعد أن حضّرت له الشاي بالحليب، بادرت بتخليصه من لحية أُهملت لأيّام عديدة. كان عنقه مغروسًا بين الكتفين، وقد جلس على كرسيّ من اللبّاد الأحمر، مكانه المعتاد لتصفّح الجرائد بعناية، تحمّل بشجاعة الالتهاب الذي خلّفته موسى الحلاقة أثناء مهاجمتها لجلدته المرتخية. كنت قد لففت منديلًا عريضًا حول رقبته الهزيلة، وطليت وجهه بسحابة سميكة من رغوة الصابون، مُحاولًا قدر استطاعتي ألاّ أُلهب قشرته وقد أثلمتها توسعات الأوعية الدمويّة.

قعّر التعب عينيه في قرار محيطهما، لتظهر صلابة الأنف وسط الملامح العجفاء، لكن لم يفقد الرجل شيئا من روعته بباقة الشعر البيضاء المتوّجة لوقار هيأته منذ الأزل.

في غرفته تراكمت حولنا ذكريات حياته، كما في محلّ خردوات لعجائز هم وحدهم يعرفون أسرارها. فوضى مجلاّت قديمة،

Twitter: @ketab_n

واسطوانات موسيقيّة غير مسموعة، أشياء وأدوات غير متجانسة وصور من مختلف العصور محشورة تحت إطار مرآة كبيرة. واحدة لأبي في زيّ بحّار صغير وهو يلعب بطَوْقٍ، قبل حرب سنة 1914، وأخرى لابنتي في سنتها الثامنة في زيّ فارس، و«كليشيه» صورة بالأبيض والأسود التقطت لي في ملعب غولف للصغار. كنتُ حينها في الحادية عشرة، أذنان كالقرنبيط وهيئة تلميذ مُثابر مع مسحة من البلاهة، وما يثير السخط أنّ بلادتي المهنيّة كانت قد تشكّلت منذ ذلك الوقت المُبكّر.

أنهيتُ مهمّتي كحلاّق باخًّا صانع أيّامي بعطره المفضّل. ودّعنا بعضنا بعد ذلك دون أن يكلّمني -في سابقة هي الأولى- عن تلك الرسالة المحفوظة في مكتبه الصغير الذي أُودع وصاياه الأخيرة. لم نر بعضنا مرّة ثانية منذ ذلك الحين. فأنا لم أغادر «مصيفي» ببارك، وهو لم تمكّنه رجلاه في عمر الثانية والتسعين من هبوط السلالم العظيمة للعمارة التي يقطن بها. كنّا الاثنين مصابين بمتلازمة المنحبس. كلّ على طريقته، أنا داخل جسمي، وهو داخل طابقه الثالث. حاليّا أنا من يُحلَقُ له كلّ صباح، فأستغرق في التفكير به كلّما هرّأ مساعد التمريض -في تفان- خدودي بشفرة حلاقة قديمة استعملها لثمانية أيّام متواصلة. أرجو أنّني نجحت في أن أكون فيغارو[1] آخر، أكثر انتباهًا.

---

(1) فيغارو: الشخصيّة الرئيسيّة لمسرحيّتين من تأليف الكاتب الفرنسي «دي بومارشيه»، الأولى بعنوان «حلّاق إشبيلية» وقد حوّلها الموسيقار الإيطالي «روسيني» إلى أوبرا شهيرة، والثانية بعنوان «زواج فيغارو» وتحوّلت بدورها إلى أوبرا ذائعة الصّيت على يد الموسيقار الكبير «موزارت».

Twitter: @ketab_n

من وقت لآخر كان يهاتفني، فأتمكّن من الاستماع لصوته الدافئ المُرتعش قليلًا عبر السماعة، إذا ألصقَتْها بأذني يد مساعدة. ليس من الهيّن التحدّث إلى ابن نعرف مُسبقًا أنّه لن يجيبنا. علاوة على ذلك، أرسل لي صورة الغولف المصغّرة. والواقع أنّي لم أعرف السبب، وبإمكان الأمر أن يبقى لغزًا ما لم يخطر للمرء أن ينظر إلى قفا الصورة.

في سينمائي الخاصّة، تعاقبت صور منسيّة لعطلة نهاية أسبوع ربيعيّة كنت رافقت فيها والدي -بقصد الترويح- إلى ضيعة كئيبة في يوم عاصف.

من خلال كتابته المتينة والمضبوطة، دوّن أبي ببساطة: بارك-عند البحر، أبريل 1963.

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

صدفة أخرى

لو سألنا قُرّاء ألكسندر دوما أيًّا من شخصيّاته يرغبون بإعادة تقمّصها، سيؤول التصويت إلى دارتانيان أو إدموند دانتس، ولا أحد سيخطر على باله أن يختار نوارتييه دو فيلفور، الوجه الأكثر كآبة في رواية «الكونت دي مونتي كريستو» وقد صوّره الكاتب جثّةً بنظرة حيّة، أو بالأحرى رجلًا صيغ في ثلاثة أرباعه للقبر. لم يكن هذا المعوّق العميق يبعث على الحلم بل على الارتجاف. مستودع هزيل وأخرس للأسرار الأكثر إخافة، يقضي حياته البائسة فوق كرسيّ بعجلات ولا يتواصل مع الآخرين إلاّ عبر رَمْشِ عينيه: غمزة واحدة تعني «نعم»، واثنتان تعنيان «لا». في الواقع، يُعتبر «الجدّ نوارتييه» -على حدّ تسمية حفيدته له بكلّ ودّ- أوّل حالةٍ لمتلازمة المنحبس، فضلًا عن أنّه الوحيد الذي ظهر إلى حدّ الآن في الأدب.

ما إن تخلّص وعيي من العتمة الحالكة التي ألقى به الحادث فيها، حتّى رحت أُفكّر في الجدّ نوارتييه. ومن ثمّة بدأت بإعادة قراءة «الكونت دي مونتي كريستو»، وها أنّني أجد نفسي في قلب الكتاب، عند أعظم وضعيّات الجسم كدرا. لم أختر هذه القراءة اعتباطًا. كان لديّ مشروع، مُحطّم للتماثيل ولا شكّ، يتمثّل في إعادة كتابة الرواية

Twitter: @ketab_n

بطريقة معاصرة: يبقى الانتقام بطبيعة الحال محرّكا للحبكة، لكن تدور الأحداث في عصرنا الحاضر ويكون مونتي كريستو امرأة.

لا أملك الوقت لاقتراف هذه الجريمة المطعون فيها، أمّا عن العقوبة فكنت أفضّل التحوّل إلى البارون دانجلرز، أو فرانس دي بيني، أو الأب فاريّا، أو جميعهم، مع وجوب نسخ عشرة آلاف مرّة العبارة التالية: لا نمزح البتّة مع الروائع. ولكنّ أرباب الأدب وطبّ الأعصاب كان لهم قرار آخر.

في بعض الأمسيات كان يحصل لديّ انطباع بأنّ الجدّ نوارتييه جاء يعاين أروقتنا، بشعره الأبيض الطويل وكرسيّه ذي العجلات العتيقة المحتاجة لقطرة زيت. تدور في رأسي -حاليّا- ملحمة كبرى تهدف لإعادة النظر في مراسيم القدر فيكون الشاهد الأساسيّ فيها قادرًا على الركض بدلاً عن مشلول. من يدري ربّما نجحت.

Twitter: @ketab_n

الحلم

عادة لا أتذكّر أحلامي مُطلقًا. ما إن أُصافح النهار حتّى أفقد تسلسل السيناريو وتتلاشى الصور تمامًا. إذن، لماذا بقيت منامات ديسمبر تلك، محفورة في ذاكرتي بدقّة شعاع ليزر؟ ربّما هي قواعد الغيبوبة. فبما أنّنا لا نستيقظ لا تجد الأحلام فسحة من الوقت لتتبخّر، فتتراكم الواحدة فوق الأخرى مُكوّنة سلسلة خيالات تَرِدُ على الوعي لاحقًا كرواية متسلسلة. وها قد عادت حلقة منها إلى البال هذا المساء.

تتساقط فوق حلمي ندفٌ كبيرة من الثلج. تغطّي طبقة بثلاثين سنتيمترا مقبرة سيّارات أعبرها رفقة صديقي الحميم وكلانا يرتجف. منذ ثلاثة أيّام وأنا وبرنار نحاول العودة إلى فرنسا «المشلولة» جرّاء إضراب عام. في محطّة للرياضات الشتويّة بإيطاليا -بها علقنا- وجد برنار قطارا صغيرا ذاهبا إلى نيس، ولكن حاجز المُضربين على الحدود قطع رحلتنا، وهكذا اضطررنا للهبوط وسط الإعصار بحذاءين عاديّين وألبسةِ طقس مُعتدل. بدا الديكور كئيبًا. هناك جسر يطلّ على المقبرة، من المُرجّح أنّه مصدر سقوط السيارات من الطريق السريعة على ارتفاع خمسين مترا ومن ثمّت تكدّسها الواحدة فوق

Twitter: @ketab_n

الأخرى. كُنّا على موعد مع رجل أعمال إيطاليّ متنفّذ استطاع أن يُنشِئ المقرّ العام لشركته في الجزء الأهم من هذه التحفة الفنيّة، بعيدًا عن النظرات المتلصّصة. نقف أمام باب من الحديد الأصفر مُرفق بيافطة «خطر موت» ورسومات لإنقاذ المصابين بالصدمات الكهربائيّة، نقرعه فينفتح. المدخل يعيد إلى الذهن صورة مخزونات صانع ملابس جاهزة في زقاق: سترات على محاملها، أكداس من البناطيل، وكراتين من القمصان بعضها فوق بعض حتّى السقف... يستقبلنا «سيربيروس»[1] بشعره المنكوش ومعطفه العسكريّ، وفي يده رشّاش. إنّه رادوفان كارازيتش، القائد الصربيّ. «رفيقي يشكو صعوبة بالتنفّس» يقول له برنار. في ركن من الطاولة، يقوم كارازيتش بثقب قصبتي الهوائيّة، لنهبط بعدها إلى الطابق الأرضيّ عبر سلّم فاخر من الزجاج. الحيطان الممدودة من النحاس الأصفر مع الأرائك والإضاءة الخفيفة تعطي لمكتبه هيئة ملهى ليلي.

يتحدّث برنار مع سيّد المكان -وهو نسخة من «جاني أنيالي» الرئيس الأنيق لشركة فيات للسيّارات- بينما تجلس مضيّفة ذات لكنة لبنانيّة على حافة بار صغير. تمّ تعويض الكؤوس والقوارير بأنابيب بلاستيكيّة متدلّية من السقف مثل أقنعة الأوكسيجين المتوفّرة في الطائرات تحسّبًا للّحظات الحرجة. يشير لي الساقي بوضعها على فمي. أنفّذ الأمر. فيبدأ سائل عنبريّ بطعم الزنجبيل بالسيلان، يجتاحني شعور بالحرارة من منبت شعري إلى أخمص قدميّ. بعد

---

(1) هو الكلب ذو الثلاث رؤوس الحارس للجحيم حسب الميثولوجيا اليونانيّة. سيربيروس وبالفرنسية: Cerbère.

Twitter: @ketab_n

برهة من الوقت، أشعر برغبة في التوقف عن الشرب والنزول قليلا عن المقعد. ومع ذلك أواصل العبّ، بجرعات طويلة، عاجزًا عن إتيان أدنى حركة. أُلقي نظرات ذاهلة إلى الساقي لأجلب انتباهه، فيجيبني بضحكة ملغزة، وتتشوّه من حولي الأصوات والوجوه. يقول لي برنار شيئا لكنّ الصوت الخارج ببطء من فمه ليس يُفهم. أسمع بوليرو «رافال»[1] عوضًا عنه. لقد خدّروني تماما.

بعد انقضاء دهر أعِي أنّ هُناك استنفارًا لمعركة. تحملني المضيّفة ذات اللّكنة اللّبنانيّة على ظهرها وتصعد بي السلّم. «يجب أن نرحل، الشرطة قادمة». في الخارج، كان الليل قد أرخى سدوله والثلج كفّ. وريح قارسة تقطع نَفَسي.

وضعنا على الجسر كشّافًا ضوئيًّا كان شعاعه يُنقّب بين هياكل السيارات المهملة. «استسلموا... أنتم محاصرون» صاح مكبّر الصوت. نجحنا في الإفلات، وبالنسبة إليّ كانت بداية تجوال طويل.

في حلمي كنت أرغب في الهروب ولكن ما إن تسنح الفرصة حتّى يمنعني خدر فوق الوصف من أن أخطُو خطوة واحدة. كنت مُنصّبًا، محنّطا، ومزجّجا. لو أنّ بابًا يفصلني عن الحريّة، لما قويت على فتحه. إلاّ أنّ ذلك لم يكن مبعث جزعي الوحيد. وأنا رهين لدى طائفة غامضة، كنت أخاف أن يقع أصدقائي في نفس الفخّ، وأحاول بشتّى الوسائل أن أنذرهم، ولكن حلمي مطابق تمامًا للحقيقة. وهي أنّي غير قادر على نطق كلمة واحدة.

(1) رافال: هو موريس رافال (1875م – 1937م) واحد من أشهر مؤلّفي الموسيقى الكلاسيكيّة في فرنسا العصر الرومنطيقيّ، وتعتبر قطعته الشّهيرة «بوليرو» من أشهر الأعمال في تاريخ الموسيقى ككلّ.

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

التّعليق الصوتيّ

عرفت صحوات أكثر لذّة. عندما استعدت وعيي في هذا الصباح من نهاية يناير، كان هناك رجل مُنحنٍ فوقي بصدد خياطة جفني الأيمن بخيط وإبرة وكأنّه يرقّع زوجًا من الجوارب. تملّكني فزع غير مبرّر. ماذا لو تأخذ طبيب العيون هذا الحماسةُ فيخيط العين اليسرى أيضًا، صلتي اليتيمة بالخارج، الشبّاك الوحيد لزنزانتي، وفُتحة بذلة الغوص الخاصّة بي؟ لحسن الحظّ لم أغطس في الظلمة. حفِظ بعناية أداته الصغيرة في علبة من الحديد الأبيض منجّدة بالقطن الطبيّ، وبنبرة مدّع عام يطالب بحكم مثاليّ ضدّ مجرم صاحب سوابق، أصدر حكمه: «ستّة أشهر». ضاعفتُ الإشارات الاستفهاميّة من عيني السليمة، لكن هذا الساذج ولئن كان يقضّي أيّامه في تفحّص بؤبؤ الآخرين لا يُحسن رغم ذلك قراءة النظرات. كان مثالا للطبيب اللامبالي، والمتغطرس والمستبدّ والدعيّ، من ذاك النوع الذي إذا طلب من المرضى -آمرًا- الحضور في الثامنة، يأتي مع التاسعة. ويغادر على الساعة التاسعة وخمس دقائق بعد أن يكون قد خصّص خمسا وأربعين ثانية من وقته الثمين لكلّ واحد. أمّا هيئته فأشبه بماكسويل سمارت[1]، رأسٌ كبير مدوّر على جسد قصير

(1) ماكسويل سمارت: الشخصيّة الرئيسيّة للسلسلة التلفزيّة «ماكس الخطر»، وقد أدّى

Twitter: @ketab_n

مُترجرج. وهو المقتّر أساسًا في الحديث مع جلّ المرضى، بلغ تنصّله المُنتهى مع الأشباح من فصيلتي. مثله ليس له لعاب ينفقه على منحنا أقلّ ما يمكن من التفسير.

في الأخير فهمت سبب سدّ عيني لمدّة ستّة أشهر: ما عاد البؤبؤ قائمًا بدوره كستارة متحرّكة حامية، وعليه أنا أواجه خطر تقرّح القرنيّة.

مع مرور الأسابيع رحت أتساءل عمّا إذا لم يتعمّد المستشفى توظيف شخصيّة بغيضة إلى هذا الحدّ، لاستثارة الارتياب الأصمّ الذي ينتهي الطاقم الطبيّ إلى خلقه لدى المرضى طويلي الإقامة، في ما يشبه الملهاة الخاصّة. ماذا لو رحل؟ وهو أمر مُحتمل، عن أيّ أبله سأتهكّم؟ لن أشعر مُجدّدًا بتلك المتعة المنعزلة والطفوليّة لإصغائي لنفسي وأنا أجيبه -من الأعماق- عن سؤاله الأبدي: «هل ترى نظيرين؟» بـ:«نعم، أرى أحمقين بدل واحد»

بقدر الحاجة للتنفّس، أحتاج أن أتأثّر، أن أحبّ وأُعجَبَ، برسالة صديق، بلوحة لبالتوس[1] على بطاقة بريديّة، بصفحة لسان سيمون[2] تعطي معنى للساعات وهي تمضي. لكن حتّى أبقى مستنفرًا ولا أغرق في إذعان سمج، أحافظ على جرعة من التبرّم. كصمّام أمان في «طنجرة ضغط»، يحول دون انفجارها. آه! على فكرة،

=الدور في النسخة الفرنسيّة الممثّل «غي بيرو».

(1) بالتوس: هو اسم الشّهرة للرسّام الفرنسي ذي الأصل البولوني بالتاسار كلوشوفسكي (1908م – 2001م).

(2) سان سيمون: هو «لويس روفرُويْ دي سان سيمون» (1675م – 1755م) ديبلوماسي وكاتب من نبلاء فرنسا. تعود شهرته الأدبيّة لتخصّصه في أدب السّيرة.

Twitter: @ketab_n

«طنجرة ضغط» عنوان مناسب لمسرحيّة قد أكتبها يومًا ما انطلاقًا من تجربتي. فكّرت أيضًا في أن أسمّيها «العين» أو «بذلة الغوص». وأنتم طبعًا تعرفون المضمون والمكان، غرفة المستشفى، حيث يتدرّب السيّد L -وهو ربّ عائلة في مقتبل العمر- على العيش مع متلازمة المنحبس إثر تعطّل بليغ في القلب والأوعية. تسرد المسرحيّة مغامراته وسط العالم الطبيّ وتطوّر العلاقات التي ما يزال يتعهّد مع زوجته وأبنائه وأصدقائه وشركائه في وكالة إشهار مهمّة كان من بين مؤسّسيها. طموحٌ هو أو بالأحرى ساخرٌ، لم يتسنّ له إلى الآن أن يمحو إخفاقاته. يتمرّن على الضيق، يرى انهيار كلّ الثوابت التي كانت تغلّفه ويكتشف أنّ أقرب الناس إليه هم بالنسبة له مجهولون.

لنا أن نتابع هذا التغيّر البطيء من المقصورات الأماميّة بفضل تعليق صوتيّ، ينقل الخطاب الداخليّ للسيّد L. على كلّ حال، لم يتبقّ إلاّ كتابة المسرحيّة. فأنا أملك الفصل الأخير بالفعل. يغرق الديكور في الغبش باستثناء هالة تنير سريرًا وسط الركح. إنّه اللّيل، ينام الجميع. فجأة يزيح السيّد L، الهامد منذ رفع الستارة، الملاءة والغطاء. يقفز أسفل السرير، يطوف خشبة المسرح وسط ضوء وهميّ. يخيّم السواد ونسمع لآخر مرّة التعليق الصوتيّ، المونولوج الداخليّ للسيّد L: «تبّا، لقد كان حلمًا».

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

يوم الحظّ

صباح اليوم، ومع بداية طلوع النهار، سعى قدر قاسٍ إلى الغرفة 119. منذ نصف ساعة وصفّارة الإنذار الخاصّة بالجهاز المعدّ لتغذيتي تُدوّي في الفراغ. لا أعرف شيئا أكثر غباوة وإحباطًا من هذا «البيب بيب» المزعج الناخر للدماغ. بادئ الأمر، وصل تعرّقي إلى الضمادة الطبيّة التي تسدّ جفن عيني اليمنى. ثمّ راحت الأهداب اللزجة تدغدغ حدقتي بطريقة مؤلمة. أخيرا، ولتتويج كلّ ذلك، تفكّك مسبار التبوّل وغُمرت بالكامل. في انتظار الإسعاف دندنت لازمةً قديمةً لهنري سالفادور[1] «تعال إذن، حبيبي، كلّ هذا ليس خطيرًا». وبالمناسبة، هي ذي الممرضة.

بحركة آليَّة فتَحت التلفاز. كان يبثّ ومضة إشهاريّة تطلب فيها خدمة المينيتال «3617 مليار» الإجابة على السؤال التالي: «هل أنت ممّن خُلقوا لتحصيل الثروة ؟».

---

(1) هنري سالفادوْر: هنري غابري سالفادور (1917م – 2008م) مُغنّ وملحّن وعازف قيتار وفكاهي فرنسي.

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

أثر الثعبان

عندما يتندّر أحدهم ويسألني إن كنت أنوي الحجّ إلى لوردز[1]، أجيب بأنّني فعلت ذلك، أواخر العام 1970. كنتُ أعيش وجوزفين علاقة على حدّ من التعقيد لا يحتمل أيّة مُحاولة لإنجاح رحلة استجمام مُشتركة. واحدة من تلك الرحلات المنظّمة، التي فيها من بواعث الخلاف أكثر ممّا في يوم كامل من الدقائق. فكي تنطلق صباحًا، وأنت تجهل أين ستبيت مساءً وأيّ سبيل تسلك إلى الوجهة المجهولة، لك أحد أمرين، إمّا أن تكون في غاية المرونة أو أن يكون لديك معينٌ لا ينضب من النوايا المُبيّتة. وجوزفين -كما أنا- تتنزّل ضمن الفئة الثانية. وهكذا، على امتداد أسبوع، تحوّلت سيّارتها المكشوفة القديمة، ذات اللّون الأزرق الباهت، مسرحًا لمشهد اختصام دائم ومُتنقّل.

من آكس لي تارم[2]، وبما كنت قد أنهيت لتوّي تدريبًا على التجوال (تفصيل ناشز في مسار وجود منذور لكلّ شيء إلاّ الرياضة) إلى غرفة الحبّ: ڤيلا لعمّ جوزفين، عند شاطئ صغير على الساحل الباسكي، قطعنا نحوها طريقا عاصفا ورائعا عبر جبال البيرينيه مُخلّفين وراءنا أثرا من قبيل «لم أتوقّع هذا مُطلقًا !!»

(1) لوردز: محافظة فرنسيّة بمنطقة جبال البيرينيه، وهي مركز الحجّ لمعتنقي المسيحيّة الكاثوليكيّة.

(2) آكس- لي- تارم: محافظة في جنوب فرنسا.

Twitter: @ketab_n

الدافع الأساسيّ لسوء الفهم الحميم هذا كتاب ضخم ذو حوالي ستّمائة صفحة أو ربّما سبعمائة، و غلاف أسود وأحمر يبرز منه عنوان لافت «أثر الثعبان» يروي أفعال شارل سوبراج[1] وحركاته، وهو ما يشبه زعيم جماعة ذا مسيرة حافلة تخصّص في إغواء المهاجرين الغربيّين بجهة بومباي وكاتماندو ومن ثمّة سلبهم. كانت قصّة هذا الثعبان ذي الأصل الفرنسيّ-الهنديّ حقيقيّة، عدا ذلك لن يكون بوسعي إعطاء أدنى تفصيل، ومن المُحتمل أيضًا أن يكون ملخّصي غير دقيق، ولكن ما أتذكّره تماما هو السطوة التي مارسها عليّ شارل سوبراج. فلئن قبلت مُجدّدًا، بعد المرور بـ«أندورا»[2]، رفع عينيّ عن الكتاب للتعبير عن إعجابي بمنظر جميل، فقد رفضت صراحة، بحلول قيظ الظهيرة، أن أنزل من السيّارة للتمشّي حتّى برج المراقبة. صحيح أنّ ضبابًا مائلاً إلى الصفرة، كان يلفّ الجبل في ذلك اليوم بالذّات، حادًّا من الرؤية ومن مُتعة الرحلة. ولكنّ جوزفين مع ذلك زرعتني حيث أنا، لتذهب وتعبس عند الغيوم لمدّة ساعتين. هل كان حرصها على المرور بـ«لوردز» لأجل تخليصي من السحر؟ وإذ أنّي لم أزر عاصمة المعجزات العالميّة هذه قطّ، أذعنت دون تردّد. على أيّة حال، داخل فكري المحموم بالقراءة، كان شارل سوبراج يتداخل وبرناديت سوبيرو[3] ومياه نهر الآدور تمتزج بنظيرتها في الغانج.

---

(1) شارل سوبراج: المكنّى بالثّعبان. قاتل فرنـسي محترف، عُرف بقدرته الفائقة على التأثير في ضحاياه وتسييرهم كما يشاء.

(2) أندورا: إمارة أندورا، وتُدعى أيضًا إمارة وديان أندورا، وهي دولة صغيرة تحدّها فرنسا وإسبانيا.

(3) برناديت سوبيرو: (1844م - 1879م) واسمها الحقيقي ماري بيرناد سوبيرو، راهبة =

Twitter: @ketab_n

في الغد، وبعد عبور ممرّ جبليّ خاصّ بطواف فرنسا -بدا لي صعوده مرهقا وإن بالسيّارة- دخلنا «لوردز» وسط حرارة خانقة. جوزفين تقود وأنا جالس بجانبها و«أثر الثعبان» المُنتفخ والمعوجّ جاثم على المقعد الخلفيّ. فمنذ الصباح لم أتجرّأ على لمسه، إذ أقنعتني جوزفين أنّ شغفي بهذه الملحمة الغريبة ينمّ عن فتور تجاه المكان.

في ما يخصّ شعائر الحجّ كنّا في فترة الذروة والمدينة غاصّة بالزوّار، ورغم ذلك أجريت تمشيطا دقيقًا للعنابر الفندقيّة، لأجد نفسي في مُواجهة هزّات أكتاف مُؤنّبة أو عبارة «نحن فعلاً آسفون»، حسب فخامة المؤسّسات. كان قميصي قد التصق من فرط تعرّقي بالتجويفين في مُستوى كليتيّ وطيف خصومة جديدة -وذاك هو الأهمّ- يحوم حولنا، وإذا بحارس فندق «إنجلترا» أو «إسبانيا» أو «البلقان» أو لا أدري ماذا، يُجيبنا -مُتخلّيًا عن النبرة المُتحفّظة لكاتب عدل يُعلم ورثةً بالموت المفاجئ لعمّ لهم في أمريكا- «أجل، هنالك غرفة».

أحجمت عن القول «إنّها معجزة» إذ أحسست بالغريزة ألاّ مجال هنا للاستهزاء بهذه الأشياء. كان المصعد شاسعًا، بحجم النقالات. وبعد عشر دقائق، أثناء تحمّمي، اكتشفت أنّ بيت الاستحمام مجهّز لاستقبال معوّقين.

وفيما كانت جوزفين تُؤدّي واجبات وضوء ضروريّة، كنت أرمي بنفسي، متجرّدًا من الثياب عدا منشفة حولي، في الواحة المُبجّلة من

= كاثوليكيّة فرنسيّة، اشتهرت بما روته عن تواصلها الرّوحي مع السيّدة مريم العذراء. وتُوفّيتْ بمرض السلّ.

Twitter: @ketab_n

جميع الظمأى: الحانة الصغيرة. أوّلاً، أفرغت نصف قنّينة من الماء المعدنيّ في جوفي بجرعة واحدة، آهٍ أيّتها القنّينة! سأظلّ أشعر بفمك الزجاجيّ على شفتيّ الناشفتين، بعد ذلك هيّأت كأس «شامبانيا» لجوزفين، وآخر «جين تونيك» لي. وحين أكملت وظيفتي كساقٍ، بدأت خفية تراجعا استراتيجيّا نحو مغامرات شارل سوبراج. لكن بدل أن تلعب الشامبانيا دورها المسكّن الفعال، منحت كلّ الحيويّة مُجدّدًا لحساسيّة جوزفين السياحيّة. «أريد أن أرى القدّيسة العذراء»، كرّرتها قافزة برجلين مضمومتين مثل الكاتب الكاثوليكيّ فرانسوا مورياك أمام صورة ذائعة الصّيت.

إذن، ها نحن ذان راحلان إلى البقعة المقدّسة تحت سماءٍ مُلبّدة مُتوعّدة. أحاول تجاوز سلسلة لا تنتهي من الكراسي المتحرّكة، تقودها سيّدات الأعمال الخيريّة، ولم يكنّ طبعًا بصدد تعاطيهنّ الأوّل مع حالات الشلل الرباعيّ. «إذا أمطرت، جميعكن إلى الكاتدرائيّة» صدحت الراهبة قائدة الموكب بسطوة، مسبحة في اليد وقبّعة رهبانيّة في مواجهة الريح. كنت أسترق النظر إلى المرضى، بأياديهم الملتوية ووجوههم المبهمة، تلك العُلب الصغيرة للحياة المُكوّم بعضها فوق بعض. اعترض أحدهم نظرتي فارتجلت بسمة. ولكنّه أجابني بمدّ لسانه، فشعرت بغباوتي واحمرّ وجهي حتّى الأذنين، كالمتلبّس بجرم.

بحذاء رياضيّورديّ، و«جينز» ورديّ، وسترة ورديّة، تقدّمت جوزفين في اعتداد وسط كتلة قاتمة توحي بأنّ القساوسة الفرنسيّين المُحافظين على ارتداء اللباس الكهنوتيّ اتّفقوا مُسبقًا على موعد للّقاء، وحين انبرت جوقة الأردية –سالفة الذكر– تُرتّل نشيد طفولتها

Twitter: @ketab_n

«كوني صورة مريم العذراء التي نتضرّع لها على رُكبنا» شارفت رفيقتي على مُلامسة ذُرى النشوة.

كان الجوّ العام مُنفجرًا حتّى ليُخيّل للمراقب قليل الانتباه أنّه إزاء محيط ملعب حديقة الأمراء عشيّة بطولة أوروبا.

في مدخل الكهف الواقع عند الرحبة الكبيرة راح الصفّ المُمتدّ لما يُناهز الكيلومتر، يتماوج على الإيقاع الواخز لمقطوعة «إلى ماريا». لم أر مُطلقًا مثيلاً لطابور الانتظار هذا -إن لم تخُنّي الذاكرة- سوى في موسكو أمام ضريح لينين.

«لكن مهلاً، لن ألتحق بصفّ كهذا!!».

«خسارة!» ردّت جوزفين بسرعة، «قد يكون ذلك مُفيدًا لكافر مثلك!».

«مطلقا!! بل إنّ ذلك سيكون خطيرًا. تخيّلي شخصًا ذا صحّة جيّدة يصل إلى هنا في قمّة التجلّي، وعلى إثر معجزة يصبح مشلولاً».

التفتت نحوي رؤوس عشرة للتعرّف على شخص المُتفوّه بمثل هذا الكلام الصادم. «أحمق» علّقت جوزفين. هطل المطر فمنحنا بعض التسلية. ومنذ القطرات الأولى شهدنا تفريخًا عفويًّا لسرب من المظلّات، وانتشرت في الجوّ رائحة الغبار الساخن. تركنا أنفسنا نُسحب حتّى كاتدرائيّة يوحنّا 23 الواقعة تحت الأرض، هذا المستودع العظيم للعبادة الذي يُقدَّم فيه القدّاس من الساعة السادسة إلى منتصف اللّيل مع تغيير للقسّ كلّ نوبتين أو ثلاث. قرأت في الدليل أنّ الصحن الإسمنتيّ وهو أرحب من كاتدرائيّة القدّيس بطرس بروما، بوسعه إيواء عدد كبير من طائرات الجمبو.

Twitter: @ketab_n

رحت أتبع جوزفين عبر ممرّ به أماكن شاغرة تحت واحد من مضخّمات الصوت العديدة التي كانت تنقل فعاليّات الاحتفال فتردّد من خلالها الأصداء قويّة «المجد للربّ الأعلى في السماوات... الأعلى في السماوات... السماوات» ومع عمليّة الرفع[1] أخرج الحاج المتبصّر المجاور لي من حقيبته منظارًا كالذي يستعمله مُتراهنو سباق الخيل، ليراقب به العمليّات. ثمّة مخلصون آخرون يملكون مناظير مُتطوّرة باهضة الثمن مثل تلك التي نراها يوم 14 جويلية عند مرور الموكب العسكريّ. لطالما كرّر والد جوزفين على مسامعي كيف بدأ حياته ببيع مثل هذا النوع من البضاعة عند مخارج محطّات المترو. على أنّ ذلك لم يمنعه من أن يصبح أحد مشاهير الراديو. بل إنّه ما يزال حتّى الآن يستعمل موهبة الباعة المتجوّلين التي يملك في وصف الزيجات الأميريّة، والزلازل الأرضيّة ونزالات الملاكمة.

في الخارج كان المطر قد توقف عن الهطول وانتعش الهواء. نطقت جوزفين كلمة «شوبينغ Shopping». ومن باب الاحتياط لهذا الاحتمال أجريت معاينةً للشارع الكبير، هناك تتلاصق محلاّت الهدايا مثل سوق شرقيّ مقدّمة أكثر العروض الخاصّة بسلع التبرّك لفتًا للنظر.

من هوايات جوزفين أنّها تجمع: قناني العطور القديمة، واللّوحات المُستوحاة من الريف سواءً ببقرة واحدة أو بقطيع، وصحون الأكل المبهرجة التي تنوب عن قائمات الطّعام في مطاعم طوكيو، وبصفة عامّة كلّ ما يمكنها إيجاده من «الكيتش» عبر رحلاتها المتعدّدة. أمّا

---

(1) عمليّة الرّفع: طقس كاثوليكي يتمثّل في رفع القسّ لخبز القربان المقدّس.

Twitter: @ketab_n

هنا، فإنّما نحن إزاء واقعة حقيقيّة للحبّ من أوّل نظرة. ففي المحلّ الرابع، على الرصيف الأيسر، وسط سقط المتاع من ميداليّات التقوى، وساعات الوقواق السويسريّة وأطباق الجبن، انتصب تمثال نصفيّ بديع من الجصّ ذو هالة متلألئة في مثل زينة أشجار عيد الميلاد وكأنّما هو بانتظار جوزفين .

«هي ذي قدّيستي العذراء!!» قالت وهي ترفس الأرض بقدميها.

«سأهديها لك» أجبت على الفور، دون تخيّل الثمن الذي سينتزعه منّي التاجر زاعمًا بأنّها القطعة الوحيدة المتبقية.

في ذاك المساء احتفلنا بالغنيمة في غرفتنا بالفندق، منيرين لهونا بضوئها المتقطّع والمقدّس، وقد رسم على السقف ظلاًّ رائعًا.

«حسنًا جوزفين، أعتقد أنّ علينا الانفصال حال عودتنا إلى باريس»

«إلى هذا الحدّ ظننتَ أنّني لم أفهم!!»

«لكن جو...»

كانت قد غفت. فمن مواهبها أنّها عندما تُجابه وضعًا يضايقها، تملك القدرة على أن تستغرق فورًا في نوم وقائي. فتمنح نفسها إجازة من الوجود لمدّة خمس دقائق أو حتّى لساعات كثيرة. لبثت للحظة أُتابع جزءًا من الحائط أعلى رأس السرير وهو يدخل ويخرج من الظلام. أيّ شيطان بإمكانه دفع الناس إلى تغليف غرفة كاملة بقماشة من الخيش البرتقاليّ؟

ولّما كانت جوزفين ما تزال تغطّ في النوم، لبست ثيابي في تكتّم

Twitter: @ketab_n

لأذهب وأُسلم نفسي لإحدى هواياتي المفضّلة: الهذيان اللّيلي. كانت طريقتي الخاصّة في مقاومة الرياح المؤذية، السير المستقيم إلى الأمام حدّ الإنهاك. على الجادّة، مراهقون هولنديّون يعبّون أكواز البيرة في جلبة، وقد أحدثوا ثقوبا في أكياس القمامة كي يستعملوها أغطيةً مانعةً لتسرّب المطر. كان ثمّة حواجز مشبّكة ثقيلة تحول دون الدخول إلى الكهف، لكنّها تُتيح مُشاهدة وميض مئات الشموع وهي تمضي نحو حتفها. في وقت لاحق قادني تجوالي إلى شارع متاجر التذكارات. وكما توقّعت، في الواجهة الرابعة، كان هناك تمثال لمريم شبيه بتمثالنا وقد حلّ محلّه.

عدت إذن إلى الفندق، ومن على مسافة بعيدة لمحتُ نافذة غرفتنا تومض وسط الغسق. صعدت الدرج بحرص على ألاّ أُعكّر أحلام الحارس اللّيلي. كان «أثر الثعبان» موضوعا على وسادتي كجوهرة في علبتها.

«مهلا» همستُ «شارل سوبراج، لقد نسيته تماما»

تعرّفت على خطّ جوزفين. «ج» ضخمة تُلطّخ الصفحة 168. كاستهلالٍ لرسالة غطّت فصلين من الكتاب وجعلته غير قابل للقراءة. *«أحبّك، أيّها الوغد. لا تجعل جوزفينتك تتألّم»*

لحسن الحظّ، كنت بالفعل قد ابتعدت كثيرًا.

حين أطفأتُ «القديّسة العذراء»، بدأ النهار في الانبلاج.

Twitter: @ketab_n

الستارة

من على كرسيّي المُتحرّك، أسترق النظر إلى أطفالي بمذلّة وأمّهم تقودني على امتداد أروقة المستشفى. فلئن كنت أبًا أشبه بالزومبي[1]، فإنّ ثيوفيل وسيليست حقيقيّان تماماً، مُتوتّران ومتذمّران. لا أملّ النظر إليهما وهما يمشيان إلى جانبي، فقط يمشيان، مخفيين تحت الهيئة الواثقة استياءً أحنى أكتافهما الصغيرة. أثناء السير، يمسح ثيوفيل بمناديل ورقيّة أدفاق اللّعاب السائل من بين شفتيّ المغلقتين. في حركة متوارية، عطوفة ومتهيّبة في آن، وكأنّها موجّهة لحيوان ذي ردّات فعل غير متوقّعة. وحالما نبطئ في السير، تبادر سيليست إلى إحاطة رأسي بيديها المكشوفتين، غامرة جبهتي بقبلات مُصيتة وهي تردّد «هذا أبي، هذا أبي» كمن يقرأ تعويذة. هو ذا احتفالنا بعيد الآباء.

في السابق، وحتّى وقوع حادثتي، لم نشعر بالحاجة إلى تسجيل هذا الموعد الإجباريّ في رزنامتنا العاطفيّة. أمّا الآن فإنّنا نقضي هنا كامل هذا اليوم الرمزيّ سويّة، كي نُثبت -دون شكّ- أنّ هذا المسوّدة، أو الظل، أو البضعة أب، لا يزال بعد أبًا. كنتُ ممزّقا بين الابتهاج برؤيتهما

(1) الزومبي: أو الموتى الأحياء. وهي الجثّة المتحرّكة بفعل السّحر. ولئن كان هذا الاعتقاد قديمًا في دول أمريكا الشّماليّة وأمريكا الوسطى، فإنّه ازداد شيوعًا منذ أواخر القرن التّاسع عشر.

Twitter: @ketab_n

يعيشان، يتحرّكان، يضحكان أو يبكيان لساعات عديدة، والخشية من أن لا يكون هذا العرض المُتكرّر للمآسي، وأوّلها أنا، التسلية المُثلى لطفل في العاشرة ولا لأخته الصغيرة ذات الأعوام الثمانية، حتّى وقد اتّخذنا كعائلة القرار الحكيم بألاّ نلطّف شيئا ممّا يجري.

نزلنا في النادي الشاطئي، وهو الاسم الذي أُطلقه على قسم من تلّة منفتحة على الشمس والريح، تفضّلت علينا الإدارة بأن عمّرتها بطاولات وكراس وشمسيّات، بل وبأن غرست فيها فسائل حوْذان نمت في الرمل وسط الأعشاب البريّة. وسط هذا الغربال الواقع على حافّة البحر، بين المستشفى والحياة الحقيقيّة، يُمكن أن نحلم بأن تحوّل جنيّة خيّرة كلّ الكراسي المتحرّكة إلى عربات شراعيّة.

«هل لك في لعبة المشنوق[1]؟» يسألني ثيوفيل. قد أجيبه عن طيب خاطر «حاليًا أكتفي بدور المشلول». ما لم يحُل نظامي التواصلي دوني والإجابات السريعة والحاسمة على طريقة قطّاعات العجين. ينحلّ الخيط الأكثر رهافة ويسقط إلى القاع، ومن ثمّة تلزمه دقائق عديدة ليُشدّ من جديد. في النهاية لا نفهم نحن أنفسنا هذا الذي كان يبدو ممتعًا قبل أن نتكبّد مشقّة إملائه حرفًا بحرف. القاعدة إذن، تجنّب الفورات المبكّرة، ما من شأنه أن يُفقد المحادثة ألقها الزئبقيّ وتلك الكلمات العابثة التي ترتدّ من أحدنا إلى الآخر كما ترتدّ كرة عن حائط. فيُضاف هذا النقص القسري في المرح إلى مساوئ حالتي.

---

(1) لعبة المشنوق: هي لعبة تهدف إلى إيجاد كلمات معيّنة، وعادة ما تدور بين اثنين. ويرافق كلّ مرحلة من مراحل اللعب رسم جزء من الأجزاء المكوّنة للمشنقة، وباكتمال الرسم تكون الجولة الأخيرة وفيها يُشار إلى الخاسر بصورة المشنوق.

Twitter: @ketab_n

أُبادر أخيرًا إلى لعب «المشنوق»، الرياضة الوطنيّة لأقسام السنوات السابعة. أجد كلمة، فأخرى، ثمّ أستند على ثالثة. في الواقع لم أكن مهيّأً للعب. اجتاحتني موجة من الحزن. هو ذا تيوفيل، ابني، جالسًا أمامي بأدب، وجهه على بعد خمسين سنتيمترا عن وجهي، وأنا أبوه لا أملك حتّى حقّي البسيط في تمرير يدي على شعره الكثّ، والإمساك بقفاه الخفيفة كالريشة، وهصر جسده الصغير الناضح نعومة ودفئًا. كيف أقولها له؟ هذا فظيع، هذا جائر، هذا بغيض، أم هذا شنيع؟ فجأة انهرت تمامًا. جرت دموعي، وانفلتت من حلقي حشرجة أفزعت ثيوفيل. لا تخف يا صغيري، أحبّك.

لبث في «مشنقته»، مُستكملاً المُباراة. حرفان إضافيّان، ربح وخسرت. وفي ركن من كرّاسته أتمّ رسم المشنقة: الحبل والمشنوق.

أمّا سيليست فمشغولة بأداء شقلبات على التلّة. لست أعلم إن كان علينا أن نعتبر ذلك ضربًا من التعويض، ولكن منذ أن غدا رفعي لجفني نظيرًا لحصّة رفع أثقال، صارت هي بهلوانًا حقيقيًا. تؤدّي، وقدماها إلى الحائط، حركة الوقوف على الرأس، وحركة الجسر المقلوب ثمّ تسترسل في أداء حركة العجلات والقفز إلى الخلف وغيرهما بمرونة قطّة. بل إنّها وضعت مهنة «البهلوان» ضمن قائمتها الطويلة للمهن التي تعتزم ممارستها في المستقبل مُلحقة إيّاها بالمعلّمة وعارضة الأزياء وبائعة الزهور.

وبعد أن غزت فتاة الاستعراض المُتمرّسة، بالتفاتاتها على القدم الواحدة، جمهور النادي الشاطئيّ، انطلقت في جولة من الغناء زادت من قنوط ثيوفيل، إذ كان شديد النفور من كلّ ما يجلب الانتباه.

Twitter: @ketab_n

حتّى أنّه لفرط انطوائه وخجله المُعادلين لانفتاح أخته وشعبيّتها، لم يكبح مشاعر الكره التي أحسّ بها تجاهي يوم أتاحت لي مدرسته -في استجابة لطلب كنت تقدّمت به- أن أقرع جرس الدخول بنفسي. لا أظنّ أحدًا بإمكانه أن يتوقّع لثيوفيل عيشًا سعيدًا، فهو في كلّ الأحوال سيحيا متخفّيًا.

أتساءل كيف تمكّنت سيليست من أن تشكّل قائمة مثل هذه من أغاني السنوات الستّين، جوني هاليداي، سيلفي فارتان، شايلا، كلو كلو، فرانسواز هاردي... لم يغب نجم واحد من نجوم تلك الحقبة الذهبيّة عن التشكيلة. وإلى جانب الأغاني الجماهيريّة المعروفة من الكلّ، هناك القطع الخالدة مثل قطار ريشارد أنتوني الذي لم يكفّ بكل تأكيد عن التصفير في آذاننا طوال ثلاثين سنة. تغنّي سيليست إبداعات منسيّة تجرّ في مسارها غيمات الذكريات. مُنذ العهد الذي كنت أضع فيه قرص 45 دورة لكلود فرانسوا بلا كلل على الفونوغراف وأنا ابن اثنتي عشرة سنة، لم أسع للاستماع إلى «مسكينة، الفتاة الصغيرة الغنيّة»[1] ومع ذلك ما إن تدندنها سيليست، وبما يكفي من الأخطاء على كلّ حال، حتّى تعاودني النغمات الأولى للازمة، بدقّة غير متوقّعة. كلّ نوتة وكلّ كوبليه وكلّ تفصيل للفرقة الموسيقيّة أو الجوقة، بما في ذلك تردّدات الصوت الموشّحة للمقدّمة. أعاود رؤية غلاف القرص، صورة المغنّي، قميصه المخطّط ذي الياقة المزرّرة الذي كان يبدو لي غاية لا تُدرك إذ أنّ أمّي تعتبره سوقيًا. بل أعاود

(1) مسكينة، الفتاة الصّغيرة الغنيّة: أغنية للمغنّي الفرنسي كلود فرانسوا (1939م - 1978م) لاقتْ رواجًا كبيرًا منذ صدورها سنة 1963م.

Twitter: @ketab_n

رؤية عشيّة الخميس الذي اشتريت فيه هذا القرص من أحد الأقارب لأبي. عملاق لطيف يدير متجرًا صغيرًا في قبو محطّة قطار الشمال بباريس، غارسًا سيجار «جيتان مايبس» في ركن فمه باستمرار. «إلى هذه الدرجة وحيدة على الشاطئ، مسكينة الفتاة الصغيرة الغنيّة...» انقضى الزمن وبدأ الناس بالاختفاء. ماتت أمّي أوّلا ثمّ تعرّض كلو كلو لصعقة كهربائيّة، وتراجعت أعمال القريب الطيّب، فمات مُخلّفاً وراءه قبيلة منكوبة من الأطفال والحيوانات. امتلأ دولابي بقمصان ذات ياقات مزرّرة وأغلب الظن أنّ المتجر الصغير للأسطوانات آل إلى تاجر شكولاتة. وبما أنّ قطار بارك ينطلق من محطّة أرتال الشمال، قد أطلب يوما من شخص ما الذّهاب لتفقّده عند مروره.

«برافو، سيليست!». صاحت سيلفي مأخوذة.

«أمّي... لقد مللتُ». برطم ثيوفيل في الآن ذاته.

إنّها الخامسة. دقّت الأجراس، فأخذ وقعها الذي كنت في العادة أجده وديًّا، صبغة إعلان حزين عن لحظة الفراق. طيّرت الريح بعض الرمال، وانسحب البحر بعيدًا حتّى غدا السابحون نقاطًا في الأفق. فيما راح الأطفال يرطّبون أرجلهم عند الشاطئ تأهّبًا للمغادرة. بقيتُ وسيلفي وحدنا وقد غلفنا الصمت. كانت تضغط أصابعي الجامدة بيدها، وخلف نظارتها السوداء العاكسة لصفاء السماء، تبكي بهدوء حياتينا المُتشظّيتين.

التقينا في غرفتي لأجل البوح الأخير. «كيف حالك، يا صاح؟» يسأل ثيوفيل. الصاح مُنضغط الحنجرة، ملفوحٌ بالشمس على يديه، ومهروس العصعص لطول مكوثه على كرسيّ. لكنّه قضّى يومًا رائعًا.

Twitter: @ketab_n

وأنتم أيّها الشباب، أيّ أثر ستحتفظون به من هذه الجولات في وحدتي الأبديّة؟

ها قد رحلوا. يُفترض أنّ السيّارة الآن على وشك بلوغ باريس. استغرقت في تأمّل رسمٍ كانت سيليست قد جاءت به وعلّق على الحائط فورًا. نوع من السمك برأسين، وعيون تحدّها رموش زرقاء وحراشف متعدّدة الألوان. غير أنّ أهميّة الرسم لا تكمن في تفاصيله، وإنّما في شكله العام الذي يعيد تشكيل الرمز الرياضيّ «لانهائيّ» بصفة مدهشة.

الشمس تتدفّق عبر النافذة. إنّها الساعة التي تنصبّ فيها أشعّتها الحارقة على رأس السرير تحديدًا. في خضمّ عواطف الرحيل، نسيت أن أشير إليهم بإغلاق الستارة. من المُؤكّد أنّ هناك ممرّضًا ما سيأتي قبل نهاية العالم.

Twitter: @ketab_n

باريس

أبتعد ببطء، لكن بثقة. مثل بحّار يُتابع من عرض البحر اختفاء الساحل الذي انطلق منه، أحسّ بماضيّ يتلاشى. لا تزال حياتي القديمة موقَدة داخلي، ولكنّها بصدد التحوّل شيئًا فشيئًا إلى رمادٍ للذكرى. منذ أن استوطنت بذلة غوصي، قمت رغم ذلك برحلتين خاطفتين إلى باريس، وسط رعاية طبّية، بهدف جمع آراء أقطاب عالم الطب. في المرّة الأولى غمرني التأثّر لُمجرّد أن مرّت سيّارة الإسعاف بالصدفة أمام العمارة المفرطة الحداثة التي كنت أمارس فيها حتّى عهدٍ قريب مهنتي الآثمة كرئيس تحرير أسبوعيّة نسائيّة مشهورة. في البداية تعرفتُ العمارة المجاورة، وهي بناء عتيق يعود إلى السنوات الستّين عَلَتْهُ لوحة تعلن قرار هدمه، ثمّ واجِهتنا الزجاجيّة، وعليها كانت تنعكس الغيوم والطائرات. في الفناء كان هنالك بعض تلك الوجوه المألوفة التي نصادفها كلّ يوم على امتداد عشر سنوات ولا نستطيع أن نضع عليها الاسم المناسب. أرخيت رأسي ناظرًا عسى وجهٌ أكثر دلالة يمرّ وراء السيّدة ذات الشعر المعقود على شكل كعكة والرجل الضخم ذي الميدعة البنيّة. لكن القدر أبى. تُرى هل رآني أحدهم من عند مكاتب الطابق الخامس وأنا أمرُّ على عربتي؟ انهمرت منّي بعض الدموع أمام محلٍّ لبيع التبغ والكحول كنت

Twitter: @ketab_n

أذهب إليه بين الحين والآخر لتناول «طبق اليوم». بإمكاني أن أبكي بشيء من التكتّم. لنقل إذن إنّ عينِي كانت تسيل.

زيارتي الثانية لباريس جرت بعد أربعة أشهر، وقد صرتُ تقريبًا لا مباليا. بدا الشارع في حلّة تمّوز، في حين كُنت أعلم أنّنا ما نزال في الشتاء. إن هو إذن إلاّ ديكور مُصوّر كانوا يعرضونه لي خلف شبابيك سيّارة الإسعاف. وهو ما نسمّيه في السينما «الإسقاط الخلفيّ» كأن تنطلق سيّارة البطل مُسرعة على الطريق، عبر جدار في الأستوديو. ولا ريب في أن أفلام هيتشكوك تدين بالكثير من شعريّتها إلى استعمال هذه التقنية، وإن لم تكن حينها مُكتملة.

لم يُخلّف فيّ عبوري بباريس أثرًا يُذكر. رغم ألاّ شيء نقص. ربّات البيوت بفساتينهنّ المُزركشة بالورود، المُراهقون على عرباتهم ذات العجلات، قرقعة الحافلات وسباب السعاة على درّاجاتهم الناريّة. ساحة الأوبرا، الخارجة من لوحة لدوفي[1]. الأشجار المواجهة لاجتياح الواجهات، وقليل من القطن في السماء الزرقاء. لم ينقص شيء، غيري أنا. كنتُ خارجًا.

---

(1) دوفي: هو راوول إرنست جوزيف دوفي (1877م - 1953م) رسّام فرنسي متعدّد الاختصاصات إذْ هو يجمع بين الرّسم والنّحت وتصميم الدّيكور وصناعة الأقمشة...

Twitter: @ketab_n

البَقْلُ

«إنّه الثامن من يونيو. وفقًا لذلك يكون قد مضى على انطلاقي في حياتي الجديدة ستّة أشهر بالتمام. رسوماتكم تشغل الحائط، ورسائلكم تتراكم في الخزانة باستمرار وبما أنّني لا أستطيع أن أجيب عليها واحدة واحدة، فقد خطرت لي فكرة هذه «الساميزدات»[1] لسرد مُجريات أيّامي، من تحسّن الحال وتضاعف الآمال. في البداية سعيت لإقناع نفسي بأنّ شيئًا لم يحصل. وفي حالة نصف الوعي التي تلت غيبوبتي التامة، كنتُ أرى نفسي راجعًا من وسط الإعصار الباريسيّ مُحاطًا في أقصى الحالات بزوج من العكازات».

كذا كانت الكلمات الأولى لرسالة بارك، التي قرّرت في أواخر الرّبيع أن أرسلها إلى أصدقائي وأقربائي. موجّهًا إيّاها إلى حوالي ستّين مُستَلِمًا عساها تُحدث وقعًا ما وتُصلح شيئًا من أضرار الإشاعة، والحال أنّ المدينة، ذاك الوحش ذو المائة فمٍ والألف أذنٍ الذي لا يعرف شيئا ويتحدّث عن كلّ شيء، كانت قد قرّرت أن تصفّي حسابها معي.

---

(1) السّاميزدات: هو نوع من الكتابة والنّشر خارج المسالك الرسميّة، مارسه المُنشقّون في الاتّحاد السّوفياتي تحدّيًا للرّقابة على الكتابات المُعارضة، فصارت تُكتب باليد وتُمرّر من قارئ إلى آخر.

Twitter: @ketab_n

في مقهي «فلور»، أحد تلك المعاقل الرئيسيّة للعجرفة الباريسيّة، حيث تنطلق النمائم انطلاق الحمام الزاجل، كان بعض خلاّني قد سمعوا تُفّهًا مجهولين يتحاورون بشراهة نسور اكتشفت لتوّها غزالة مبقورة البطن: «أتُراك علمت أنّ .ب. قد تحوّل إلى بَقْلٍ؟» قال أحدهم «بالطبع بلغني ذلك. بقل، نعم، بقل». يجب الإقرار بأنّ «بقل» كلفظ يُمكن اعتباره لطيفًا في قصر البين ذاك، لاسيّما وأنّه تكرّر مرّات عديدة أثناء طفحي لقمتيْ طبق الرّبيت الويلزي. أمّا طريقة التلفّظ فمغزاها أنّ ضيّق العقل والتفكير وحده قد ينكر أنّي من الآن فصاعدا أكثر صلوحيّة لتجارة بواكير الخضار والفواكه منّي لمرافقة الرجال.

كان الزمن زمن سلم، وبالتالي لم يكن أحد ليُطلق النار على حاملي الأخبار الزائفة. لذا إن أنا أردت إثبات أنّي ما أزال أملك قدرة فكريّة أعلى ممّا لدى نبتة «لحية التيس»، وجب عليّ ألّا أعتمد إلاّ على نفسي.

هكذا إذن نشأ تراسل جماعيّ رُحت أتابعه من شهر لآخر، فأتاح لي أن أبقى على تواصل مستمرّ مع من أحب. بل يُمكن القول إنّ كبريائي الآثم آتى ثماره. إذ عدا بعض العصيّين على الإقناع، المتشبّثين بصمتهم العنيد، فَهِمَ الجميع أنّ بإمكانهم التواصل معي في بذلة غوصي، حتّى وإن سحبني ذلك بين الحين والحين إلى تخومٍ لم تُكتشف بعد.

أستقبل رسائل لافتة، تُخرَجُ من أغلفتها وتُفرَدُ، ثمّ تُعرض على عينيّ وفق طقس قراءة استقرّ مع الوقت، مانحًا وصول البريد صبغة احتفالٍ مقدّس يغلّفه الصمت. أقرأ كلّ رسالة بنفسي وبعناية

Twitter: @ketab_n

فائقة. بعضها لا تخلو من الأهمّيّة. تتحدّث عن معنى الحياة، وسيادة الروح، وعن السر الكامن في كلّ وجود. وفي ظاهرة غريبة لانقلاب الأوضاع، لاح لي أنّ أولئك الذين أقمت معهم أبسط العلاقات هُم من يضغطون إلى أقصى حدّ في طرح هذه الأسئلة الجوهريّة، وأنّ خفّتهم تحجب عمقهم. هل كنتُ أعمى وأصمّا؟ أم أنّ نور المأساة ضروريّ لينير لرجل نهاره الحقيقيّ؟

هناك رسائل أخرى تروي في بساطة أحداثًا صغيرة لتُبرز انسياب الزمن؛ زهور تُقطف مع الغسق، رتابة يوم أحد ممطر، بكاء طفل قبل أن ينام. هذه العيّنات من الحياة، المأخوذة من اللب، هذه النفحات من السعادة، أثارت عواطفي أكثر من أيّ شيء آخر. سواء كانت في ثلاثة أسطر أو في ثماني صفحات، آتية من الشرق الأدنى البعيد أو من لاڤالو بيريه، أحتفظ بها مثلما يُحتفظ بكنز. ويومًا ما سأسعى لإلصاق بعضها ببعض لصنع شريطة من ألف متر ترفرف في مهبّ الريح، مثل راية، مُعلنة مجد الصداقة.

وسوف يبعد ذلك النسور.

Twitter: @ketab_n



Twitter: @ketab_n

التنزّه

الحرارة خانقة، ومع ذلك أرغب في الخروج. فأنا منذ أسابيع، أو ربّما منذ أشهر، لم أتخطّ سياج المستشفى للقيام بالنزهة المعهودة على الممشى المحاذي لساحل البحر، آخر مرّة حصل فيها ذلك كانت في الشتاء، الأعاصير الثلجيّة تعصف بحبيبات الرمل، والمتسكّعون القلائل يمشون بمواجهة الريح في خطّ منحرف محبوسين في أسمالهم الثخينة. اليوم أريد أن أرى بارك في حلّة الصيف، بشاطئها الذي عرفته مُتصحّرًا وقيل لي إنّه الآن مزدحم، وحشد تمّوز اللاّمبالي. كي نصل إلى الشارع عبر جناح سوريل، لا بدّ من المرور بثلاثة مرائب تصطفّ فيها سيّارات ذات أكسية خشنة غير محكمة التغليف من تلك التي تضع مؤخّرة الجالس عليها في موقف حرج. كُنت قد نسيتُ «درب المُحارب»[1] الخاصّ بنزهتي وما فيه من أغطية بالوعات، وأقنان دجاج وسيّارات مركونة على الرصيف.

ها هو البحر، الشمسيّات، القوارب الشراعيّة وجمهرة المستحمّين المكمّلة للبطاقة البريديّة. إنّه بحر العطل، بحر رائق وودود. لا علاقة

(1) درب المحارب: هو نوع من التدريب العسكري، يتمثّل في محاولة قطع درب مليء بالمطبّات والصّعوبات في أسرع وقت ممكن.

Twitter: @ketab_n

له بالفضاء غير المتناهي ذي المسحة الفولاذية الذي نتطلّع إليه من شرفات المستشفى. وإن كان بالتموّج نفسه والتجاويف نفسها والأفق الضبابيّ نفسه.

نسير عبر الفناء الأماميّ، وسط ذهابٍ وإيّاب لقرون آيس كريم وأفخاذٍ قرمزيّة. أتخيّلني وأنا ألعق بنهم كرة ڤانيليا على بشرة فتيّة لوّحتها الشّمس. لا أحد ينتبه لي. ففي بارك للكراسي المتحرّكة من الشيوع ما للفيراري في مونتي كارلو، والتعساء البؤساء من المعطوبين والمهمهمين أبناء فصيلتي، بالإمكان التقاؤهم في كلّ مكان. مرافقاي في هذه الظهيرة كلود وبريس. هي أعرفها منذ خمسة عشر يومًا، وهو منذ خمسة وعشرين عامًا. بدا لي غريبًا أن أستمع إلى شريكي القديم وهو يُحدّث عنّي المرأة الشابّة المُلتزمة بالحضور كلّ يوم لأخذ مادّة كتابنا هذا إملاءً. طبعي المتقلّب، هوسي بالكتب، ذوقي المفرط، الالتزام بالطعام الجيّد، سيّارتي المكشوفة الحمراء، كل شيء يمرّ عبر كلود. وكأنّها راو ينبش أساطير عالَم خفيّ. «لا أراك هكذا» تقول لي. بات عالمي مقسومًا، بين أولئك الذين عرفوني سابقًا والآخرين. على أيّ هيئة ماضية سيتخيّلونني يا تُرى؟ فليس في غرفتي حتّى مجرّد صورة أريهم إيّاها.

توقّفنا في أعلى سلّم واسع يفضي إلى حانة الشاطئ، وإلى صفٍّ جميل من كابينات استحمام فاتحة اللون. ذكّرني السلّم بالمدخل الكبير لمحطّة مترو «باريس-بورت دو أوتوي» الذي كنت أمرّ به وأنا صبيّ أثناء عودتي من مسبح «موليتور» وعيناي يغشاهما الكلور. هُدّم المسبح منذ سنوات. أمّا السلالم فلم تعد بالنسبة لي سوى مسالك مسدودة.

Twitter: @ketab_n

«هل تريد العودة؟» سألني بريس. فاحتججت بقوّة عبر هزّ رأسي في جميع الاتجاهات. لا سبيل لعودتي على أعقابي قبل بلوغي الهدف الحقيقي من هذه الرحلة الاستكشافيّة. مررنا سريعًا وسط دوّار أحصنةٍ خشبٍ قديمة أوشك صوت الأورغن الـ«ليمونار»[1] الصادر عنه أن يثقب أذنيّ. اعترضنا «فانجيو» أعجوبة المستشفى، وتلك كنيته فيه، متصلّبًا كالعدالة، لا يستطيع الجلوس البتّة. لقد فُرض عليه ألّا يكون إلاّ واقفًا أو مستلقيًا، حتّى أنّه يتنقّل مُمدّدًا على بطنه فوق عربة يسيّرها بنفسه بسرعة مدهشة. لكن من تُراه يكون ذلك الأسود الطويل ذو الهيئة الرياضيّة الذي يشقّ له الطريق صارخًا «انتبهوا، ها هو فانجيو!» ؟ فاتني أن أعرف.

أخيرا بلغنا ذروة الرحلة السياحيّة، هنا، عند نهاية الفناء الأماميّ. وإذا كنت قد رغبت في أن أمرّ بهذا الطريق كلّه، فليس لغاية اكتشاف منظر عامّ بديع وإنّما لأشبع نفسي بتلك النفحات المُتأتّية من مخيّم صغير عند جهة الخروج من الشاطئ. وضعوني في مواجهة الريح فأحسست بمنخريّ يختلجان من المتعة مستنشقًا عطرًا جافًّا مدوّخًا، يستحيل احتماله من أيّ كان. «يا إلهي!!» قال صوت ورائي، «إنّه أنتن من رائحة الشياط!!»

أنا، لا تضجرني البتّة رائحة البطاطا المقليّة.

---

(1) اللّيمونار: ماركة شهيرة لصناعة الأورغن المستعمل في الملاهي بحيث تصدر عنه الموسيقى تلقائيًا

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

عشرون ضدّ واحد

فعلتُها. استعدتُ اسم الحصان. كان يسمّى ميثراغرانشان.

من المُفترض أنّ فانسون بصدد عبور «آبارڤيل»، وهي تلك النقطة التي يشعر عندها القادم من باريس على متن سيّارة بأنّ رحلته قد طالت. عقب الطريق السيارة السريعة جدًّا، والخالية تقريبًا، طريق فرعيّة بمسلكين، تصطفّ فيها السيّارات والشاحنات، خطًّا طويلاً بلا تقطّعات.

مضى على هذه القصّة، أكثر من عشرة أعوام، كنت وفانسون وآخرون قد حالفنا حظّ خارق وتولّينا مقاليد جريدة يوميّة صباحيّة، لم يعد لها اليوم وجود. وتفاصيل ذلك أنّ مالكها -وهو رجل صناعة شغوف بالصحافة- أبدى جرأة مُنقطعة النظير وعهد بمولوده إلى أصغر فريق عمل في باريس، في وقت كانت تُحاك فيه ضدّه مؤامرة سياسيّة وبنكيّة جهنّمية، ترمي إلى سلبه الأصل التجاري الذي أنشأه قبل خمس سنواتٍ أو ستّ. فما كان منه إلاّ أن رمى، دون علم منّا، بأوراقه الأخيرة في المعركة لنلتزم بها جميعًا مُنذ تلك اللحظة ألفا في المائة.

يمرّ فانسون الآن بتقاطع طرق، وعليه أن يترك يسارا الطريق

Twitter: @ketab_n

المؤدّي إلى روان وكروتوي ويسلك المصران الطويل باتّجاه بارك عبر سلسلة من التجمعات السكنيّة الصغيرة. يُمكن لهذه الدوّارات أن تُضلّل الأشخاص غير الخبيرين بها، أما فانسون فلا يضيّع الشمال البتّة، لا سيّما وقد أتى لرؤيتي مرّات عديدة. مضيفًا إلى قدرته على تحديد الوجهة، قدرة فائقة على الوفاء.

كنّا منشغلين بالعمل طوال الوقت. نبكّر في الصباح ونتأخّر في المساء، نعمل في اللّيل، وفي عطلة نهاية الأسبوع، مطيحين ونحن خمسة بمردوديّة دزينة من الأشخاص، بلا وعي نعم ولكن بسرور. يطرح فانسون عشرة أفكار كبرى في الأسبوع: ثلاث ممتازة، خمس جيّدة واثنتان كارثيّتان. بالتالي كان دوري يتمثّل في إجباره على فرزها ولو قليلاً، في تعارض واضح مع طبعه العجول التوّاق لرؤية كلّ ما يدور في خلده يتحقّق لساعته.

أكاد أسمعه من هنا وهو يخبط مقوده، لاعنًا الجسور والمستنقعات. في غضون عامين ستُفتتح الطريق السيّارة لتؤمّن الوصول إلى بارك، لكن في الوقت الحالي ليس هناك سوى حضيرة بناء نتقدّم عبرها ببطء، عالقين وراء قوافل من السيّارات.

الواقع، أنّنا لم نفترق البتّة. لم نكن نحيا ونأكل ونشرب وننام ونحبّ ونحلم إلاّ في الجريدة، ولأجل الجريدة. من منّا اقترح قضاء تلك الظهيرة في المركض؟ في يوم أحد شتويّ جميل، أزرق، بارد وجافّ، كان هناك سباق خيول في ڤانسين. ورغم أنّنا لم نكن من المتراهنين، فقد عمد المعلّق على السباق، تعبيرًا عن تقديره الكبير لنا، إلى تجاذب أطراف الحديث معنا بالمطعم القريب من المضمار ومن ثمّة

Twitter: @ketab_n

مدّنا بكلمة السرّ الفاتحة لأبواب عالم السباقات الغامض. معلومة خفيّة، بدت لنا ونحن نستمع إليها تطريزًا فائق الجودة، وبضمان مُرفق بالفاتورة. نعم، لقد كان ميثراغرانشان ينطلق بقيمة مراهنة عليه تساوي عشرين نظير واحدٍ، ما يعني غُنمًا ماليًّا جيّدًا، أفضل بكثير ممّا يمكن أن يجنيه ربّ عائلة عن طريق الاستثمار.

ها هو ڤانسون يصل إلى مدخل بارك، وككلّ النّاس، يتساءل برهة في جزع عمّا جاء يفعله هنا.

كانت أجواء غداء لطيفة تلك التي عشناها في قاعة الأكل الكبيرة، المطلّة على ميادين السباق، والمستقبلة مجموعات متأنّقة من رجال العصابات والقوّادين والممنوعين من الإقامة وغيرهم من المنحرفين المُنجذبين إلى عالم الخبب. قانعيْن وشبعانيْن، لبثنا نمزّ سجائرنا الطويلة بنهم منتظريْن السباق الرابع وسط ذلك الجوّ الساخن الذي تنمو فيه سجلاّت القضاء نموّ نبتة السحلبيّة.

بوصوله عبر الجزء المطلّ على البحر، ينحرف ڤانسون عائدًا إلى الفناء الأماميّ الكبير دون أن يعلم شيئًا عمّا تُخفيه حشود المصطافين من قفر بارك الشتاء وبردها القارس.

انتظرنا في ڤانسين طويلاً حتّى انتهى بنا الأمر إلى أن انطلق السباق دون حضورنا. كان شبّاك المتراهنين قد أُغلق أمام أنوفنا وأنا أسحب من جيبي حزمة التذاكر التي أودعتها عندي هيئة التحرير. رغم التوصية بالتكتّم، جال اسم ميثراغرانشان في الأقسام، لتحوّل الإشاعة الحصان الضئيل الحظّ وغير المعروف حيوانًا أسطوريًا يرغب الجميع في المراهنة عليه. لم يتبقّ غير مشاهدة السباق والرجاء... عند

Twitter: @ketab_n

دخول المنعرج الأخير بدأ ميثراغرانشان بالانفلات. مع الخروج منه، كان قد تقدّم بما يُعادل خمس وثبات على بقيّة ملاحقيه، ثمّ رأيناه يجتاز خطّ النهاية -كما يحدث في الأحلام- تاركًا ملاحقه المباشر على بعد أربعين مترا. إنّه طائرة حقيقيّة. في الجريدة، من المؤكّد أنّ بهجة عارمة كانت تحيط التلفاز.

تتسلّل سيّارة ڤانسون إلى مرآب المستشفى، والشمس في كبد السماء. هنا تحديدًا يتعيّن على الزوار الاتّسام بالجسارة ليتخطّوا رغم إحساسهم بالاختناق، الأمتار الأخيرة التي تفصلني عن العالم: الأبواب الزجاجيّة المُتحكَّم فيها أوتوماتيكيّا، المصعد رقم 7 والرواق الصغير الرهيب المؤدّي للغرفة 119. عبر الأبواب المواربة تكاد لا تلمح غير التماثيل المسجّاة لأشخاص طريحي الفراش رمى بهم القدر إلى أقاصي الحياة. هناك من تنقطع أنفاسهم أمام هذا العرض. فيتوجّب عليهم أوّلا أن يتجوّلوا قليلاً مثلما اتّفق، ليصلوا إليّ بصوت أكثر عزما وبأعين أقلّ غشاوة. عندما يتقدّمون أخيرًا يبدون كغواصين فرغوا من النفس. وأعي تمامًا أنّ قواهم قد خارت، هنا، أمام عتبتي: فعادوا أدراجهم حتّى باريس.

يقرع ڤانسون الباب ويدخل بصمت. كنت قد عوّدت نفسي على ألّا أنتبه أو أكاد إلى التماعات الفزع إذ تعبر نظرات الآخرين. أو لنقل إنّها على كلّ حال ما عادت تصيبني بالقشعريرة نفسها. أحاول أن أركّب ما أريده ابتسامة ترحيب، عبر أساريري العجفاء بسبب الشلل. يجيب ڤانسون على تكشيرتي بقبلة على الجبهة. هو لا يتغيّر البتّة. تاجه من الشعر الأصهب، سيماه العابسة، قدّه المربوع

Twitter: @ketab_n

المُتأرجح من ساق إلى ساق، جميعها تمنحه الهيئة المضحكة لنقابيّ من بلاد الغال أتى لرؤية رفيق له وقع ضحيّة انفجار منجميّ. تقدّم ڤانسون بقبضة نصف منخفضة مثل ملاكم من وزن المتين- الهشّ[1]. يوم ميثراغرانشان، وبعد الوصول المشهود، لم يستطع كبح جماحه: «حمقى. نحن حمقى حقيقيّون. في الجريدة سوف يفكّكوننا بالمفكّ» كانت تلك عبارته المفضّلة.

كي أكون صريحًا، لقد نسيت ميثراغرانشان. حتّى عادت ذكرى هذه القصّة توًّا إلى ذاكرتي، مخلّفة فيّ أثرًا مضاعف الألم. الحنين لماض كامل، وتأنيب الضمير على إهدار الفرص. ميثراغرانشان، هو النساء اللّاتي لم نهتدِ إلى حبّهن، المُمكنات التي لم نغتنم، ولحظات السعادة التي تركناها تطير. اليوم يبدو لي أنّ وجودي برمّته لم يكن إلاّ تشكيلاً لقائمة المُهدرات. سباق نعرف نتيجته مُسبقًا، ولكنّنا نعجز على لمس الفائز فيه. بالمناسبة، يومها انسحبنا مسدّدين كافّة الرهانات.

(1) هو وزن من إبداع المؤلّف بهدف السخرية من بعض الأوزان المستعملة في الملاكمة وتسمياتها الغريبة كوزن الدّيك ووزن الرّيشة ووزن الخفيف الثّقيل...

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

صيد البطّ

علاوة على مختلف المنغّصات المقترنة بمتلازمة المنحبس، أعاني من اضطراب حقيقيّ في أذنيّ. على اليمين طرش تامّ، وعلى اليسار تضخّم في قناة السمع وتشوّه في الأصوات حين يكون مصدرها على مسافة تزيد عن مترين وخمسين سنتيمترا. عندما تحلّق طائرة فوق الشاطئ ساحبة وراءها القماشة الإشهاريّة لمنتزه الجهة، قد يذهب في ظنّي أنّ طاحنة قهوة ثبّتت إلى أصموخي. على أنّ هذا ما هو إلاّ جعجعة عارضة. أمّا الأكثر إيذاءً فهو الجلبة المُنبعثة من الممرّ باستمرار، فرغم ما بذلته من جهد لتحسيس الجميع بمشكلة أذنيّ، لم يوصدوا بابي دونها. تُقرقع الكعوب على مشمّع الأرضيّة، تتصادم العربات، تتداخل الأحاديث، وتتصايح الفرق على طريقة موظّفي البورصة في يوم تصفية، وتُشغّل أجهزة راديو لا يستمع إليها أحد. وليكتمل كلّ ذلك تصدر ماسحة أحذية كهربائيّة لمحة صوتيّة من الجحيم.

هناك أيضا المرضى المزعجون، أعرف منهم من يجد متعته الوحيدة في معاودة الاستماع إلى الشريط نفسه بلا انقطاع. حدث أن جاورت فتى صغيرًا أُهدي بطّة مخمليّة ذات نظام استشعار معقّد يبثّ موسيقى حادّة ومزعجة حالما يدخل أحدهم الغرفة، ما يعني ثمانين

Twitter: @ketab_n

مرّة في اليوم. من حسن حظّ مريضنا الصغير أن عاد إلى منزله قبل أن أبدأ بتنفيذ مخطّطي لتصفية البطّة. على كلّ حال ما يزال المخطّط تحت يدي، إذ لا أحد يعلم طبيعة الكوارث التي ما تزال العائلات المكلومة قادرة على إثارتها. أمّا النخلة المثيرة للانتباه في الجوار فتعود إلى مريضة بعثرت الغيبوبة مداركها، حتّى أنّها صارت تعضّ الممرّضات، وتمسك مساعدي التمريض من أكثر أجزاء أجسادهم ذكورة ولا تستطيع طلب كأس ماء دون إطلاق صرخة استغاثة! في البداية تخلق هذه الإنذارات الكاذبة حالة استنفار حربيّ حقيقيّة. بعد ذلك وفي إطار الضجر من الحرب، ينتهي الأمر إلى تركها تزعق قدر ما تشاء، في أيّ ساعة تشاء، من النهار واللّيل.

تضفي حصص التمريض هذه على قسم الأعصاب مسحة من «عشّ الوقواق»[1] غاية في الإثارة، إلّا أنّني حين أرسلنا صديقتنا خارجًا لتُطلق عقيرتها بالصياح «النجدة، إنّهم يقتلونني!» شعرت ببعض الندم.

بعيدا عن هذه الجلبة، وفي الصمت الذي استعدت يمكنني الاستماع إلى الفراشات الطائرة عبر رأسي. يتطلّب الأمر كثيرًا من الانتباه والتأمّل، لأنّ خفقات أجنحتها تكاد لا تُدرك. يكفي تنفّس قويّ ليغطّيها. وإنّه لأمر مذهل أنّي رغم عدم تحسّن سمعي أسمعها أفضل فأفضل. لا بدّ أنّ لديّ أذن فراش.

(1) عشّ الوقواق: إحالة على رواية «طيران فوق عشّ الوقواق» للروائي الأمريكي كين كيسي، تدور أحداثها في مصحّة للأمراض النفسيّة والعصبيّة. وقد تمّ تحويلها إلى فيلم سنة 1975م، من إخراج ميلوس فرمان وبطولة جاك نيكلسون.

Twitter: @ketab_n

الأحد

عبر النافذة، أتطلّع إلى واجهات الآجر الأمغر إذ تضاء بأولى إشعاعات الشمس، فتصطبغ -تحديدًا- باللون الورديّ لكتاب النحو اليوناني للسيّد رات1. ذكرى السنة الرابعة. على العكس مما قد يُظنّ، لم أكن متميّزا في اللّغة اليونانيّة وآدابها، لكنّني أحبّ تلك الدرجة من اللون، الدافئة والعميقة، فمن خلالها يُفتح أمامي عالم الدرس من جديد، هناك نسير جنبا إلى جنب مع كلب ألسيبيادس[1] وأبطال معركة ثيرموبيلاي[2].

تجّار الألوان يسمّونه «الورديّ العتيق»، وهو ضعيف الشبه بورديّ الضمادات اللاصقة المُميِّز لأروقة المستشفى. وأضعف منه شبهه بالبنفسجيّ الذي يُغلّف أُزُرَ جدران غرفتي وكوّاتها، كما يُغلّف عطر رخيص.

إنّه الأحد. أحد مخيف، إذا حال سوء الطالع فيه وقدوم زائر ما،

---

(1) ألسيبيادس: (450ق.م - 404ق.م) رجل سياسة وخطيب وقائد عسكري إغريقي، كان له كلب فائق الجمال والقوّة فقطع له ذنبه لا لشيء إلّا لفسح المجال لخصومه للحديث عن ذلك.

(2) ثيرموبيلاي: أو ما يُعرف بالبوّابات الحارّة هو ممرّ ساحلي ضيّق يقع في اليونان، أتتْ شهرته من المعرفة الّتي كان ميدانًا لها بين القوّات اليونانيّة ومن ضمنها جيش إسبرطة الشّهير والقوّات الفارسيّة.

Twitter: @ketab_n

فلن يستطيع أيّ حدث مهما كان نوعه أن يقطع الانسياب الرتيب للوقت. لن يجدي اختصاصيّ العلاج الطبيعيّ، ولا اختصاصيّ النطق ولا عالم النفس. سيكون الأمر أشبه بعبور للصحراء، الواحة الوحيدة فيه عمليّة تنظيف صغيرة، بل ومختَصرة عن العادة! هذه الأيّام، بات التأثير المتأخّر للإسراف في الشرب مساء السبت، المرفق بالحنين إلى النزهات العائليّة، وإلى جولات رماية الأطباق الطائرة أو صيد الجمبري، وغير ذلك ممّا تحول دونه حصص المناوبة، يُغرق فرق التمريض في تبلّد آليّ. فتغدو حصّة الغُسل أقرب إلى ما يجري في المسالخ منها إلى العلاج بمياه البحر. باختصار، حتى جرعة مضاعفة ثلاث مرات من أرقى العطور لا تكفي لإخفاء الحقيقة: رائحتنا كريهة.

إنّه الأحد. في حال ما شغّلوا لنا التلفزيون، يجب ألاّ أفوّت الفرصة. وهو ما يتطلّب خطّة محكمة. ففي الحقيقة من الوارد، أن تمرّ ثلاث ساعات أو أربع قبل أن تعاود الروح الطيّبة الظهور وتغيّر القناة، لذا من المحبّذ أحيانًا التخلّي عن برنامج مهمّ إذا كان متبوعًا بمسلسل مبك، أو بحصّة ألعاب تافهة أو ببرنامج حواريّ قوامه الصراخ. فيه من التصفيق المجانيّ لكلّ شيء ما قد يصمّ أذني. أفضّل هدوء الأشرطة الوثائقيّة حول الفنّ أو التاريخ أو الحيوانات. أشاهدها دون تعاليق، تماماً كما نتمعّن في وهج الحطب.

إنّه يوم الأحد. يدقّ الجرس جهيرًا مُعلنًا الساعة. ومن يوميّة الخدمة العموميّة المُعلّقة على الحائط لتُورَّق مع كلّ يوم جديد، يُطلّ شهر أغسطس. أيّ مفارقة تفسّر تجمّد الوقت هنا وسباقه المحموم

Twitter: @ketab_n

هناك؟ في عالمي المنكمش هذا، تتمطّط الساعات وتمرّ الأشهر مثل البرق! لا أكاد أصدّق أنّي في أغسطس. الأصدقاء والنساء والأطفال شتّتتهم ريح الإجازات. وها إنّ تفكيري ينزلق بي إلى مخيّم إقامتهم الصيفيّة، لا يهمّ إن فطرت هذه الجولة قلبي قليلا. في بريطانيا، قدم سرب من الأطفال إلى وسط البلد على متن دراجات تسوّق، والضحكات تضيء الوجوه جميعًا. فمع أنّ البعض منهم بلغ منذ مدّة عمر المحن الحقيقيّة، ما يزال بوسع كلّ واحد فيهم أن يجد على هذه المسالك المُسيّجة بأزهار «الردندرة» براءته الضائعة. ظهر اليوم سيطوفون بالجزيرة على متن زوارق. وسيقاوم المحرّك الصغير التيّارات، ويتمدّد أحدهم في مقدّمة المركب مغلقا عينيه، وتاركًا لذراعه أن تخوض على غير هدى في الماء البارد. مع منتصف النهار يتحتّم التكوّم في تجاويف المنازل المسحوقة بالشمس، تُملأ دفاتر الرسم المائيّ. ويبحث قطّ صغير بقدم مكسورة عن ركن ظليل في حديقة قسّ. وأبعد من ذلك، في كامارغ، تقطع سحابة من الثيران مستنقعًا واسعًا يعبق بعطر باكورة الـ«باستيس»[1]. ومن كلّ الأنحاء تتسارع التحضيرات للموعد المنزليّ الكبير، الموعد الذي يدفع مسبقا بجميع الأمّهات إلى التثاؤب من الضجر، ولكنّه يأخذ عندي شكل شعيرة أسطوريّة منسيّة: الغداء.

إنّه الأحد. أتفحّص الكتب المكدّسة على حافّة النافذة، مُشكّلة مكتبة صغيرة عديمة الجدوى، ما دام لا أحد سيأتي ليقرأها لي،

---

(1) الباستيس: نوع من الكحول المعطّرة بالأنيثول وعرق السّوس.

Twitter: @ketab_n

سينيكا[1]، زولا[2]، شاتوبريان[3]، ڤاليري لاربو[4]، كلّهم هنا على بعد متر منّي، عصيّين حدّ القسوة. تحطّ على أنفي ذبابة مُكتملة السواد. ألوي رأسي كي أوقعها. فتثبُت. لم تكن نزالات المصارعة اليونانيّة الرومانيّة التي شاهدتها في الألعاب الأولمبيّة شرسة إلى هذا الحدّ. إنّه يوم الأحد.

(1) سينيكا: (04ق.م - 65م) فيلسوف ومسرحي ورجل دولة روماني.

(2) زولا: هو إميل زولا (1840م - 1902م) كاتب وصحفي فرنسي. ويُعدّ أهمّ مُؤلّفي المدرسة الطّبيعانيّة.

(3) شاتوبريان: هو فرانسوا ريني شاتوبريان (1768م - 1848م) كاتب ورجل سياسة فرنسي، يُعدّ واحدًا من روّاد الرّومنطيقيّة في الأدب الفرنسي.

(4) فاليري لاربو: (1881م - 1957م) كاتب فرنسي جمع بين الشّعر والرّواية والتّرجمة واشتهر باستعمال عديد الأسماء المستعارة.

Twitter: @ketab_n

صبايا هونغ كونغ

عشقت السفر. من حسن الحظّ أن استطعت أن أخزّن على مرّ السنين ما يكفي من الصور والنفحات والأحاسيس لأتمكّن من الرحيل، أيّام تسدُّ سماء في لون لوح الدراسة، هنا، أيّ أفق للخروج. هي ذي التسكّعات الشاذة، الرائحة الزنخة لحانة نيويوركيّة وعبق الفاقة في سوق رانغون. أصقاع العالم. اللّيل الأبيض والجليديّ لسان بيترسبورغ أو التوهّج الباهر للشمس في فورناس كريك بصحراء نيڤادا. هذا الأسبوع، هناك ما هو خاصّ نوعًا ما. مع الفجر من كلّ صباح أطير إلى هونغ كونغ، حيث تنعقد ندوة الطبعات الدولية من مجلّتي. أواصل قول «مجلّتي» رغم الفحش الذي حفّ بالعبارة، كما لو أنّ حبّ التملّك هذا، هو واحد من تلك الخيوط الرهيفة التي تشدّني إلى العالم المتحرّك.

واجهت في هونغ كونغ بعض الصعوبة في إيجاد طريقي، لأنّي على عكس كثيرين آخرين، لم أزر هذه المدينة قطّ. في كلّ مرّة كان هناك ظرف قاس ما يبعدني عن هذه الوجهة. فإذا لم أسقط مريضًا يومًا قبل الرحيل، أضيع جواز سفري أو يناديني تحقيق صحفيّ تحت سماءٍ أخرى. في المُجمل كانت الصدفة تمنعني من الذهاب.

Twitter: @ketab_n

وفي إحدى المرّات تركت مكاني لجان بول ك[1]. ولم يكن قد قضى بَعْدُ سنينه الطويلة في زنزانة ببيروت، يحصي الأصناف الكبرى من خمور بوردو كي لا يصاب بالجنون. أذكر يوم جلب لي هاتفا خلويّا، ممّا يمكن عدّه وقتها أحدث طراز، وكيف كانت عيناه من وراء نظارته المستديرة تضحكان. أحبّ جان بول، لكنّي لم أعاود رؤية رهينة «حزب الله» قطّ. وذلك عائد بلا شكّ إلى خجلي من اختياري وقتها خوض لعبة المصالح في عالم تحكمه البهرجة. في الوقت الحالي، أنا المسجون وهو الرجل الحرّ. وعلى اعتبار أنّي لا أعرف كلّ خمور ميدوك[2] كان حريًّا بي أن أبحث لي عن تعداد آخر يؤثّث الساعات الأكثر ركودًا. كأن أحصي البلدان التي تطبع فيها مجلّتي. هنالك في الحاصل ثمانية وعشرون بلدًا منتميًا إلى هذه الأمم المتّحدة المُغرية.

بالمناسبة، أين أنتنّ يا زميلاتي العزيزات، سفيرات «لمستنا الفرنسيّة» الدؤوبات؟ الماكثات طوال اليوم في قاعة استقبال الفندق محاولاتٍ بالصينيّة والإنجليزيّة والتايلانديّة والبرتغاليّة والتشيكيّة، أن يُجبن على أكثر الاستفهامات ميتافيزيقيّة: من تكون المرأة «هي»؟ أتخيّلكنّ الآن متناثرات في هونغ كونغ، عبر شوارع تقطر بضوء النيون، في محلّ تباع داخله حواسيب الجيب وسلطانيّات حساء الشعريّة، مهرولات في إثر ربطة «الفراشة» الخالدة لرئيسنا المدير العام إذ يقود الجميع بخطى حثيثة. نصف «سبيرو»، نصف

---

(1) جان بول ك: هو جان بول كوفمان، كاتب وصحفي فرنسي وقع أسره في بيروت يوم يوم 22 ماي 1985 أثناء قيامه بتغطية صحفيّة هناك، وأُخلي سبيله بعد ثلاث سنوات.

(2) ميدوك: منطقة ريفيّة بفرنسا.

Twitter: @ketab_n

«بونابارت»، لا يتوقّف إلاّ أمام أشهق ناطحات السحاب مُتطلّعًا إليها بزهو وكأنّه يريد ازدرادها.

أين سنذهب سيّدي الجنرال؟ هل نقفز من على حافّة الهيدروفويل[1] الناقل إلى ماكاو[2] كي نذهب فنحرق بعض الدولارات في الجحيم، أو نصعد إلى حانة فيليكس في فندق بينينسولا المزوّقة من طرف المصمّم الفرنسي فيليپ س.؟ دفعتني طفرة من النرجسيّة إلى تخيير الاقتراح الثاني. أنا الذي يكره أن تؤخذ له الصور، أملك صورة لخلقتي داخل هذه الخمّارة العُلْويّة الباذخة، منسوخة على مسند كرسيّ ضمن عشرات الوجوه الباريسيّة الأخرى التي أخذ لها فيليپ س. رسما. بالطبع جرت هذه العمليّة بضع أسابيع قبل أن يحوّلني القدر إلى فزّاعةٍ لعصافير الدوري. لا أعرف إن كان كرسيّي قد حظي بنجاح أكثر أو أقلّ من الآخرين، لكن إيّاكم أن تذهبوا وتقصّوا على الساقي حقيقة أمري. فجميع هؤلاء الناس متطيّرون ولن يعود مُتاحًا أن تأتي أيّ من تلك الصينيّات الصغيرات الفاتنات بتنّوراتهنّ القصيرة وتجلس فوقي.

---

(1) الهيدروفويل: أو القارب المزعنف، هو فارب يتّسم بقدرته على حفظ توازنه حتّى خارج الماء.

(2) ماكاو: هي منطقة ماكاو الإداريّة الخاصّة، ولكنّها تابعة للصّين تمامًا مثل هونغ كونغ.

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

الرسالة

لئن كان هذا الركن من المستشفى يحمل خطأً هيئة معهد انغلوساكسوني، فإنّ روّاد الكافيتيريا الدائمين فيه لم يشذّوا عن «حلقة الشعراء الأموات»[1]. للفتيات قساوة النظرة، وللفتيان الأوشام وأحيانًا الخواتم في الأصابع. يجتمعون على كراسيهم، يتحدّثون عن الشجار والدراجات مُتبِعين سيجارة بأخرى. يبدون جميعًا حاملين صليبًا على أكتافهم المقوّسة بطبيعتها، مُكابدين قدرا من الشقاء ما المرور ببارك فيه سوى تقلّب بين طفولة كلب معذّب ومستقبل مُقصى مهنيّا. عندما أتجوّل في وكرهم الأدخن، يخيّم صمت كنسيّ، لكنّني لا أستطيع أن أقرأ في عيونهم لا شفقة ولا رحمة.

عبر النافذة المفتوحة نسمع خفقان القلب البرونزي للمستشفى، الجرس الذي يهزّ السماء أربع مرّات في السّاعة. وعلى طاولة مزدحمة بالأكواب الفارغة، تضطجع آلة كاتبة صغيرة في جوفها ورقة ورديّة مقلوبة الوضع. لئن بقيت الصفحة خاوية إلى الآن، فإنّي متأكّد أنّ بين يوم وآخر ستكون هنالك رسالة لأجلي. وها أنا أنتظر.

---

(1) حلقة الشّعراء الأموات: هو فيلم أمريكي للمخرج بيتر واير، صدر سنة 1989.

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

داخل متحف غريفان[1]

هذه اللّيلة زرت متحف غريفان في المَنام. لقد تغيّر كثيرًا. صحيح أنّ المدخل هناك ما يزال طراز الحقبة الجميلة، بمراياه المُحرِّفة للصور وخزانته المدهشة، لكنهم ألغوا قاعات عرض الشخصيّات المعاصرة. في حجرة أولى، لم يكن تعرّفي على التماثيل المعروضة حينيًّا. فبما أنّ مصمّم الأزياء كان قد ألبسها ثيابًا عاديّة، توجّب عليّ أن أفحصها واحدًا واحدًا، وأن أُحيطها ذهنيًا بالميدعة البيضاء قبل أن أعي أنّ هؤلاء المتسكّعين بأقمصتهم القطنيّة، وتلك الفتيات ذوات التنانير القصيرة، ومدبّرة المنزل المنتصبة بعربتها الصغيرة، وهذا الشاب صاحب الخوذة، ليسوا في الحقيقة سوى الممرّضين ومساعدي التمريض -من الجنسين- المتعاقبين على سريري صباحَ مساء. جميعهم كانوا هنا، مجمّدين في الشمع؛ اللّطفاء والشرسون والحسّاسون واللاّمبالون والنشيطون والكسولون. أولئك الذين تربطني بهم علاقة وثيقة وهؤلاء الذين لا أكون بين أيديهم سوى مريض عاديّ.

في البداية أجفلني بعضهم. فلم أر فيهم إلاّ سجّانين شرسين وأضلاع مؤامرة كريهة. بعد ذلك كرهت آخرين لمـّا لووا لي ذراعي

(1) هو متحف الشّمع بباريس وفيه تجُسّد المنحوتات الشّمعيّة أشهر الشّخصيّات فرنسيّة كانت أو أجنبيّة.

Twitter: @ketab_n

واضعين إيّاي على الأريكة منسيًا لليلة بأكملها أمام التلفزيون، متروكًا في وضعيّة مؤلمة برغم إنكاري لذلك. لبضع دقائق، أو ربّما لبضع ساعات كان من الممكن أن أقتلهم. ثمّ ابتلع الوقت نوبات الغضب الأكثر فتورًا، فصاروا أشخاصًا مألوفين، يلتزمون إلى حدّ ما بمهمّتهم الجسيمة: أن يعدّلوا صُلبانا قليلاً عندما تتعاظم تقرّحات أكتافنا. سمّيتهم بكنيات لا يعرفها غيري. كي أتمكّن، إذا ما دخلوا غرفتي، من مناداتهم بصوتي الداخليّ المدوّي «مرحبا، بالعيون الزرق! سلاما، دودوش الكبير» هم لا يعلمون من الأمر شيئًا بطبيعة الحال. هذا الذي يرقص حول سريري ويأخذ أوضاع مغنّي روك كي يسأل «كيف حالك؟» هو دافيد بوي[1]. أمّا الـ«أستاذ» فمثير لضحكي، برأس الطفل ذي الشعر الرماديّ الذي يملك والجديّة التي يتصنّع ليلطمني في كلّ مرّة بالحكم نفسه: «شرط ألاّ يحدث شيء». في ما يخصّ «رمبو» و«ترميناتور» فلن يكونا -بلا أدنى شكّ- مثالين للحنان!! أفضّل عليهما «ميزان الحرارة» ويمكن اعتبار تفانيها نموذجيًا، لو لم تكن تنسى أداة القيس بانتظام في طيّتيْ إبطيّ.

مُتفاوتة هي نسب نجاح نحات الشمع لغريفان في التقاط الملامح والأسارير المُميّزة لهؤلاء الأشخاص الشماليّين، الساكنين منذ أجيال بين رياح ساحل «أوبال» والأراضي الخصبة لـ«بيكاردي»، المُستعملين طواعيّة للهجة الشتيمي[2] فور التقاء أحدهم بالآخر.

---

(1) دافيد بوي: هو دافيد روبرت جونس (1947م – 2016م) فنّان اشتهر كمغنّي «روك» إلّا أنّه في الآن ذاته عازف ومُلحّن وكاتب ورسّام ومُمثّل.

(2) الشّتيمي: لهجة أو شبه لغة خاصّة بأهالي الشّمال الفرنسي.

Twitter: @ketab_n

بعض المنحوتات ضئيلة الشبه بالأصل. يتطلّب الأمر موهبة واحد من رسّامي المنمنمات في العصر الوسيط، أولئك الذين أحيت فرشهم بما يشبه السحر الحشود العابرة لطريق الـ«فلاندر». ليست لدى فنّاننا هذه الملكة. غير أنّه تمكّن وإن بسذاجة من وضع يده على العذوبة الصبيانيّة لتلميذات التمريض، بنظارة أذرعهنّ المُميِّزة للفتيات الخام والمسحة القرمزيّة المخضّبة لخدودهنّ الممتلئة. قلت لنفسي، عند مغادرتي للقاعة: أحبّ جلاّديَّ جميعًا.

في الحجرة التالية، فوجئت بوجود غرفتي بالمستشفى البحريّ مستنسخة بتطابق تامّ، على ما بدا لي، ففي الحقيقة حالما نقترب تنكشف لنا الصور والرسومات والملصقات فإذا هي مزيج من ألوان غير دقيقة، ديكور مُعدّ للخداع من على بعد مسافة محدّدة، مثلما هو حال التفاصيل في لوحة رسم انطباعيّ. لم يكن أحد على السرير، فقط تجويف وسط الشراشف الصفراء، مكلّل بهالة من ضوء باهت. هنا، لم أجد صعوبة في التعرّف على الشخصيّات المتفرّقة في الزقاقين المحاذيين لذاك السرير المهمل. كانوا بعضًا من فرقة الحرس الشخصي، التي فُرّخت حولي، دون سابق إنذار، في اليوم الموالي للكارثة.

جالسًا على مقعد صغير، يعمّر ميشال بأمانة الكرّاس المُخصّص لأن يسجّل فيه زوّاري كامل أحاديثي. ترتّب آن ماري باقة من أربعين وردة. ويمسك برنار بيدٍ واحدةٍ كتاب «يوميّات ملحق بالسفارة» لبول موراند، مفتوحًا، آتيًا باليد الأخرى حركة اشتهر بها المحامون، وقد منحته عدستا نظّارته الموضوعتان على طرف أنفه والمطوّقتان بالحديد، سحنة خطيب محترف. بينما تعلّق فلورانس

Twitter: @ketab_n

بالدبابيس رسومات أطفال على لوحة من الفلّين، وشعرها الأسود يحيط بابتسامتها الحزينة، أمّا باتريك المُتّكئ على الحائط فيبدو هائمًا في أفكاره. تنبجس رقّة كبرى من هذه اللوحة، الجديرة بأن نقول عنها إنّها حقيقيّةٌ تقريبًا. حزن مشترك وتكثيف لتلك الجدّية المحبّبة التي أحسّ بها عند كلّ مرور لهؤلاء الأصدقاء.

أردتُ متابعة رحلتي لأرى إن كان المتحف ما يزال يحتفظ لي بمفاجآت أخرى، لكن حارسًا، في الرواق المظلم، أشرع مصباحه ملء وجهي. فكان عليّ أن أغمز بعينيّ.

عند الاستيقاظ، مالت نحوي ممرّضة صغيرة حقيقيّة ذات ذراع مدوّرة، ومصباحها اليدويّ في يدها: «هل أعطيك قرص دوائك المنوّم الآن؟ أم بعد ساعة؟».

Twitter: @ketab_n

المتبجّح

على مقاعد المعهد الباريسيّ، حيث أبليتُ سراويلي الجينز الأولى، خالطت صبيًّا طويلاً أمغر يدعى أوليڤيي، له من الهوس بالكذب المبالغ فيه ما يجعل مُعاشرته لطيفة. معه، لا داعي للذهاب إلى السينما، إذ أنّنا هناك باستمرار، وفي أفضل الأماكن، أمّا الفيلم فليس يعدم وسائل تحقيقه. كلّ يوم اثنين يُطالعنا على حين غرّة بقصص عن نهاية الأسبوع، تليق بألف ليلة وليلة. إذا لم يقضِّ يوم الأحد مع جوني هاليداي[1]، فلأنّه كان في لندن لالتقاء «جيمس بوند» المقبل، إلاّ إذا حرموه من الهوندا الجديدة. (كانت الدراجات الناريّة اليابانيّة قد وصلت إلى فرنسا وألهبت ساحات المعاهد.) وهكذا يظلّ صديقنا يجمح بنا من الصباح إلى المساء بكذباته الصغيرة وادّعاءاته الضخمة، دون أن يخشى الاختلاق المستمرّ لقصص جديدة حتّى ولو ناقضت ما قبلها. يتيمًا في العاشرة، ابنًا وحيدًا ساعة الغداء، ثمّ يمكن أن يكتشف أربع أخوات فيما بعد الظهر وتكون إحداهنّ بطلة تزلج فنيّ على الجليد. أمّا والده، الموظّف الهمام في الواقع، فإنّه قد يصبح مع الأيّام: مخترع القنبلة الذريّة، أو متعهّد فرقة البيتلز، أو الابن الخفيّ للجنرال ديغول. وإزاء هذا التخلّي من أوليڤيي عن تنظيم أكاذيبه،

(1) جوني هاليداي: هو جون فيليب شميث، مُغنّ ومُلحّن وممثّل فرنسي يُعتبر من أوائل من غنّوا الرّوك في فرنسا وعملوا على إشهاره.

Twitter: @ketab_n

ما كُنّا لنلومه على تضاربها. وحتّى حين يُتحفنا بكذبة صعبة الهضم ونُبدي بعض التحفّظات تجاهها، فإنّه لا يلبث أن يحتجّ مُشدّدًا على صدقه بعبارة «أقسم بذلك». يُعلنها بسخط، يضطرّنا إلى الرضوخ سريعًا.

حسب آخر معلومات استقيتها، لم يصر أوليڤيي سائق طائرة مقاتلة أو عميلاً سريًّا أو مستشارًا لأمير مثلما خطّط لذلك في برنامجه الذي أعدّ. بل هو يُزاول -في تماه تامّ مع سلامة المنطق- أكثر المهن ملاءمة لموهبته الخارقة كأفّاك، ألا وهي الإشهار.

أشعر بشيء من الندم على ازدرائي له، لأنّني من الآن فصاعدًا سأغار منه ومن براعته في فنّ اختراع الحكايا. لست متأكّدًا بالمرّة من بلوغي مثل حنكته، حتّى ولو بدأت أنا أيضا في اختلاق أقدار مجيدة لنفسي على سبيل التعويض. في الوقت الحالي أنا سائق سيّارة «فورمولا1»، لا بدّ وأنّكم رأيتموني في بعض المضامير مثل مونزا أو سيلڤرستون. السيّارة البيضاء الغريبة، المعفاة من الماركة والعلامة المنجميّة، إنّها أنا. ممدّد على سريري، أقصد في قمرتي للقيادة، ألفّ المنعطفات بأقصى سرعة، فينحني رأسي المثقل بالخوذة انحناءة مؤلمة جرّاء الجاذبيّة.

ألعب أيضا دور الجنود الصغار في سلسلة تلفزيّة عن المعارك التاريخيّة الكبرى. تقمّصت أدوارًا في إليسيا[1]، بواتييه[2]،

(1) إليسيا: هي معركة كبرى دارت في 52ق.م، وواجه فيها الغاليّون الجيش الرّوماني النّظامي ولكنّهم انهزموا.

(2) بواتييه: هي معركة دارت بين 732م و733م، تفوّق فيها جيش الأمير الإسباني شارل على الجيش العربي وقتل قائده عبد الرّحمان الغافقي.

Twitter: @ketab_n

مارينيان[1]، أوسـترليتز[2] وطريق السـيّدات[3]. ولّما كنت قد أصبت في إنزال النورماندي، فإنّي لا أعلم حتّى الآن إن كنت سأذهب للقفز بالمظلّة في ديان بيان فو.

بين يدي اختصاصيّة العلاج الطبيعيّ، أنا درّاج مُستبعد من طواف فرنسا عشيّة مرحلة حاسمة، وهي مُسكّنة عضلاتي، بعد أن فجّرها المجهود من فرط سرعة انطلاقي إلى قمّة «تورمالي»[4]. مازلت أسمع صخب الجمهور على حافّة الطريق نحو القمّة، وأزيز الهواء بين العجلتين أثناء النزول. لقد تفوّقت بربع ساعة على كلّ عمالقة الكوكبة. «أقسم بذلك»

(1) مارينيان: منطقة بإيطاليا كانت ميدانًا لمعركة حاسمة بين الملك الفرنسي فرانسوا الأوّل وجيش المرتزقة السويسري. وقُتل فيها 16000 شخص في غضون يوميْ 13 و14 سبتمبر 1515م، لتنتهي الواقعة بعد ذلك بانتحار الملك الفرنسي.

(2) أوسترليتز: هي المعركة الّتي دارتْ، يوم 02 ديسمبر 1805م، بين جيش نابوليون بونابرت إمبراطور فرنسا وجيش النّمسا وروسيا المتحالفين. والأرض الّتي جرتْ عليها المعركة وأخذت اسمها تتبع اليوم جمهوريّة تشيكيا.

(3) طريق السيّدات: هو طريق، في فرنسا، يمتدّ لـ 26كلم، اشتهر بأنّه كان مسرحًا لعديد المواقع في الحرب العالميّة الأولى.

(4) تورمالي: جبل من الجزء الفرنسي لسلسلة جبال البيريني، يبلغ ارتفاعه 2115م.

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

يوم في الحياة
(A day in the life)

ها نحن قد وصلنا تقريبًا إلى نهاية الطريق. بقي لي أن أستحضر -من الذاكرة المنكوبة- يوم الجمعة ذاك، 8 ديسمبر 1995. فمنذ البداية وأنا عاقد العزم على سرد لحظاتي الأخيرة في الريف بعد أن أكون قد استعدت القدرة على المشي تمامًا. ولكنّني أجّلت ذلك مرارًا، إلى حدّ أنّني الآن أشعر بالدوار وأنا أوشك أن أنفّذ هذه القفزة الهائلة إلى ماضيّ. لا أعرف البتّة من أيّ طرف أمسك هذه الساعات الثقيلة والعبثيّة العصيّ التقاطها، كقطرات زئبق من ميزان حرارة كسر إلى نصفين. تُخاتلني الكلمات. كيف أعبّر عن جسد طريّ ودافئ لصبيّة سمراء، تصحو قبالته للمرّة الأخيرة، دون أن تُعيره انتباهًا، بل وشاعرةً بالتبرّم؟ كلّ شيء كان رماديًّا، مُذعنًا، بليدًا: السماء، والناس، والمدينة المرهَقة من إضراب للنقل العمومي تواصل لأيّام عديدة. على شاكلة ملايين الباريسيّين، استهللت وفلورنس -بعيوننا المُنطفئة وسحناتنا المُنهكة مثل الزومبي- يومًا جديدًا من السقوط المُتواصل في فوضى يصعب الفكاك منها. رحت أقوم آليًّا بكلّ تلك الحركات البسيطة التي تبدو اليوم خارقةً: حلاقة الوجه، ارتداء الملابس وازدراد زبديّة من الشكلاطة. وإذ كنت حدّدت منذ أسابيعَ يوميَ ذاك تاريخًا لتجربة طرازٍ جديدٍ من سيّارات

Twitter: @ketab_n

شركة ألمانيّة، وضع مورّدها على ذمّتي إحداها -مع سائقها- لنهار كامل، فقد لبث في انتظاري -حسب الساعة المُتّفق عليها- شاب أنيق قبالة باب العمارة، متّكئا على سيّارة BMW ذات لون رماديّ معدنيّ. عبر النافذة، وأنا ألمح السيّارة المغلقة المفرطة الضخامة والفخامة، تساءلت: «كيف ستبدو هيئتي في سترة قديمة من الجينز داخل عربة خاصّة بإطار سامٍ؟» وضعت جبهتي على النافذة كي أحسّ بالبرد. داعبت فلورانس عنقي برقّة. هي الوداعات في خفائها، تلامست شفتانا قيد أنملة، إذ كنتُ قد اندفعت بالفعل عبر السلم الفائحة درجاته برائحة الطلاء الشمعيّ. سوف تكون آخر رائحة من الأزمنة القديمة.

أقرأ الأخبار اليوم، يا ولد...(I read the news today, oh boy)

بين نشرتين خاصّتين بالحركة المروريّة المروّعة، يبثّ الراديو أغنية للبيتلز «يوم في الحياة»، كنتُ على وشك أن أكتب أغنية «قديمة» للبيتلز، في إسهاب محض. إذ يعود آخر تسجيل لهم إلى العام 1970! عبر غابة بولونيا بباريس، تنزلق الـ BMW مثل سجّاد طائر، شرنقة من اللّيونة والإثارة. ولّما كان سائقي لطيفًا. عرضت عليه مخطّطاتي لما بعد الظهيرة: الذهاب أربعين كيلومترا خارج باريس لإحضار ابني من عند أمّه، واصطحابه إلى المدينة مع بداية الأمسية.

لم يلاحظ أنّ الأضواء قد تغيّرت... (He did notice that the lights had changed)

منذ أن هجرت المنزل العائليّ، لم نحظ أنا وثيوفيل قطّ بلقاء وجها لوجه، ولا بمحادثةٍ بين رجلين. نويتُ أن آخذه إلى المسرح لمشاهدة

Twitter: @ketab_n

العرض الجديد لألفريدو آرياس[1] ومن ثمّة تناول بعض المحار في مطعم براسري في ساحة كليشي. من المقرّر أن نقضي آخر الأسبوع مع بعضنا. أتمنّى فقط ألاّ يُسقط الإضراب برنامجنا.

أودّ أن أثيرك...(I'd like to turn you on)

يعجبني توزيع هذا الجزء من الأغنية، عندما تأخذ الأوركسترا نسقًا تصاعديًّا يبلغ الانفجار مع آخر نوتة، وكأنّه بيانو سقط من الطابق الستّين. وقفت الـ BMW أمام مقرّ الجريدة. ضربت موعدًا للسائق في حدود الساعة الثالثة مساءً وذهبت. لم يكن في مكتبي إلاّ رسالة واحدة، لكن أيّ رسالة!! يجب أن أتصل على جناح السرعة بسيمون ف.[2] الوزيرة السابقة للصحّة، والمرأة التي كانت سابقًا الأكثر شعبيّة في فرنسا، وصاحبة السموّ مدى الحياة المُتمتّعة بالمقام الأرفع في البانثيون[3] المتخيّل للجريدة. لم يكن هذا النوع من المكالمات يحدث جزافًا مُطلقًا، استفسرت بادئ الأمر عمّا عسانا نكون قلنا أو فعلنا فأثرنا حفيظة هذه الشخصيّة الرائعة. «أظنّ أنها ليست راضية عن صورتها في آخر عدد»، لمّحت مساعدتي. استطلعت العدد المذكور فعثرت على الصورة المُسيئة، لقد وقع التصرّف فيها بشكل تفّهَ معبودتنا أكثر ممّا أعطاها قيمة. هذا واحد من أسرار مهنتنا. نعمل لأسابيع على موضوع، يمرّ ويعاود المرور بين الأيادي الأكثر تمرّسًا

---

(1) ألفريدو آرياس: كاتب مسرحي وممثّل ومخرج أرجنتيني.

(2) سيمون ف: هي سيمون فاي، وزيرة الصحّة في فرنسا بين 1974 و1979.

(3) البانثيون: كلمة ذات أصول يونانيّة، تعني معبد كلّ الآلهة. إلاّ أنّ البانثيون في باريس اليوم هو المدفن المخصّص لرفات الشّخصيّات الفرنسيّة الخالدة وفق نظام تراتبي تُحدّده أهميّة كلّ شخصيّة.

Twitter: @ketab_n

ولا أحد يرى العيب، رغم أنّه قابل للاكتشاف حتّى من صحفيّ متربّص لم يُتمّ خمسة عشر يومًا من التدريب. كنت في مواجهة عاصفة تلفونيّة حقيقيّة محُاولًا امتصاصها. وأمام اقتناع سيمون بأنّ الجريدة تحيك مؤامرة ضدّها منذ أعوام، وجدت صعوبة جمّة في إقناعها بأنّها تمثّل لنا -على العكس ممّا تظنّ- معشوقة حقيقيّة. عادةً ما تصل هذه الترقيعات إلى آن ماري، مديرة التحرير، ومن مميّزاتها أنّها تُظهر مع كلّ المشاهير صبر حائكة نسيج، في حين أبدو أشبه بـ«الكابتن هادوك»[1] منّي بهنري كيسنجر. عندما أنهينا المكالمة بعد ثلاثة أرباع ساعة. حصل لديّ انطباع بأنّني لست أكثر من لفافة موكيت.

رغم سلامة رأينا في السادة والسيّدات مديري التحرير الذين نعتبرهم «مُتعالين شيئا ما»، فإنّهم ما كانوا يفوّتون بالمرّة، أيّا من الأغدية التي يُنظّمها جيرونيمو (ويكنّى أيضًا لويس الحادي عشر وآية الله، من قِبل مشجّعيه) لـ«تدارس الوضع». هنا في الطابق الأخير، في أوسع قاعات الأكل المخصّصة للإدارة العليا، يقطّر علينا كبير الرؤساء، في جرعات صغيرة، العلامات التي يمكن من خلالها قياس مدى إعجابه بالمواضيع. بين الثناء المدعوم بصوت مخمليّ والردّ الجاف الأشبه بضربة مخلب، تمتدّ قائمة من الإيماءات، تعابير وجه، وحكّات لحية، تعَلَّمْنَا أنّ نفُكَّ رموزها مع مرور الأعوام. لا أتذكّر شيئًا من تلك الوجبة الأخيرة عدَا أنّني شربت الماء كما يشرب المُدان كأسه. أظنّ أنّ قائمة الطعام احتوت لحم عجل، ولعلّنا أصبنا

(1) الكابتن هادوك: هو أحد الشّخصيّات الرّئيسيّة في سلسلة «مغامرات تان تان» للصّور المتحرّكة.

Twitter: @ketab_n

بفيروس جنون البقر الذي لم يكن بعد موضوعًا للحديث في تلك الفترة. وبما أنّ احتضان البكتيريا قد يدوم خمسة عشر عامًا قبل ظهور المرض، فإنّنا نملك كلّ الوقت لانتظاره. الموت الوحيد المُتوقّع كان لميتيران[1]، تقريرٌ دوّخ باريس: هل يتخطّى نهاية الأسبوع؟ ولكنّه في الواقع كان يملك شهرًا آخر ليعيشه.

أسوأُ ما في هذه الأغذية، أنّها تتكرّر باستمرار، إلى ما لا نهاية.

حين التقيت سائقي كان المساء قد خيّم بظلاله على الواجهات الزجاجيّة. وكي أربح الوقت، عاودت المرور بمكتبي كالسارق دون قول وداعًا لأحد. رغم ذلك كان قد مضى من الوقت أربع ساعات:

-سنقع في شرك الازدحام

-المعذرة

-إنّما قلت ذلك لأجلك...

للحظة، تملّكتني رغبة في أن أدحر كلّ شيء بشدّة، فألغي الذهاب إلى المسرح، وأؤجّل زيارة ثيوفيل، لأذهب وأقبع تحت لحافي مع إناء من الجبن الأبيض وكلمات متقاطعة، لكنّي قرّرت أن أقاوم هذا الإحساس بالكآبة الذي غصّ به حلقي.

- لم يبق إلاّ أن أتّخذ الطريق السريعة.

- كما تريد..

غرقت السيّارة القويّة جدّا -بما يُطابق سمعتها- في زحام جسر

---

(1) ميتيران: هو فرانسوا ميتيران (1916م - 1996م) رئيس الجمهوريّة الفرنسيّة في الفترة الممتدّة من 21 ماي 1981 إلى 17 ماي 1995.

Twitter: @ketab_n

سوراسن. حاذَينَا ميدان سباق سان كلود ثمّ مستشفى رايموند بوانكاري في ڤارش. لا يمكن أن أمرّ من هنا ولا أستحضر بوضوح ذكرى مروّعة من طفولتي. كنت تلميذًا في ثانويّة كوندوسيه، وكان مدرّس الجمباز يصطحبنا إلى المركّب الرياضيّ في فوسكريسون لإجراء الحصص في الهواء الطلق، وهو ما أمقته أكثر من أيّ شيء آخر. في أحد الأيّام، صدمت الحافلة التي تُقلّنا شخصًا أثناء خروجه من المستشفى جاريًا دون انتباه. رافق ذلك صوت مدوّ لفرملة حادّة، ومات الرجل على الفور مُخلّفًا لطخة من الدم على الزجاج الأماميّ للحافلة. جرى الأمر في ما بعد ظهيرة شتويّة مثل هذه، ولم يمض الوقت المُخصّص لتحرير المحاضر اللازمة إلاّ وقد حلّ المساء. قادنا سائق آخر إلى باريس. في الخلف كنّا نُغنّي «penny lane» بأصوات مُرتعشة. دائمًا البيتلز.

أيّ أغان سيذكرها ثيوفيل عندما يبلغ الرابعة والأربعين؟

بعد ساعة ونصف قضيناها في الطريق بلغنا مقصدنا أمام البيت الذي عشت فيه لعشر سنوات. كان الضباب قد عمّ الحديقة الكبيرة، تلك التي لطالما أرجعت أصداء الصيحات والضحكات المجنونة للحظات السعادة. وجدنا ثيوفيل بانتظارنا في المدخل، جالسا على حقيبة ظهره، جاهزا لنهاية الأسبوع. كنتُ أودّ أن أتصل بفلورانس، صديقتي الجديدة لأسمع صوتها، لكن يُفترض أن تكون قد ذهبت إلى أهلها من أجل صلاة مساء الجمعة. سأحاول اللحاق بها بعد الخروج من المسرح، شهدت هذه الشعيرة مرّة واحدة لدى عائلة يهوديّة، كانت هنا بمونتان فيل، في منزل الطبيب التونسيّ المسنّ

Twitter: @ketab_n

الذي أخرج أطفالي إلى العالم. عند ذاك الحد، غدا كلّ شيء غير متّسق. ارتبك نظري وتبلبلت أفكاري. ومع ذلك، وضعت نفسي، أمام مقود الـBMW مركّزا على التوجيهات البرتقاليّة للوحة القيادة. قدت ببطء، وعلى ضوء المصابيح الأماميّة كنت أتعرّف بصعوبة على منعطفات خبرتها آلاف المرّات، أحسست بالعرق يتلألأ على جبهتي، وكلّما صادفتنا سيّارة أراها اثنتين. عند أوّل تقاطع ركنت السيارة إلى الحافّة. غادرتها مترنّحًا، غير قادر على الوقوف، ارتخيت على الكرسيّ الخلفيّ. وفي ذهني فكرة مُحدّدة: معاودة الصعود إلى البلدة، فهناك تقيم أخت زوجتي، وهي ممرّضة. بنصف وعي، أطلب من تيوفيل أن يركض باحثًا عنها حال وصولنا أمام منزلها. بعد ذلك ببضع ثوان، كانت ديان هنا. فحصتني لمدّة دقيقة على أقلّ تقدير، ثمّ أصدرت حكمها «يجب الذهاب إلى المصحّة، بأقصى سرعة ممكنة». ما يعني قطع خمسة عشر كيلومترا. هذه المرّة انطلق السائق ناهبًا الطريق نهبًا كما في السباقات الكبرى. تملّكتني حالة في غاية الغرابة، لكأنّني ابتلعت قرص LSD، قلت لنفسي إنّ هذه التهيّؤات لا تناسب عمري. لم تساورني للحظة فكرة أن أكون بصدد الاحتضار. على طريق «مانت» 1، تقرقر الـBMW، بحدّة، ونجتاز رتلًا كاملاً من السيارات شاقّين لنا ممرّا بينها بفضل تزمير تحذيريّ مُدوّ، وددت أن أقول: «تمهّلوا. ستتحسّن الأمور. لا داعي للمخاطرة بحادث»، لكن لم يخرج أيّ صوت من فمي، انحنى رأسي وقد صار تحكّمي فيه مُستحيلًا. عاد البيتلز إلى ذاكرتي بأغنيتهم التي سمعتها صباحًا.

وكما بات الخبر بدلا من ذلك محزنا، رأيت الصورة الفوتوغرافيّة.

Twitter: @ketab_n

(And as the news were rather sad, I saw the photograph)

سرعان ما وصلنا المصحّة. كان هنالك أشخاص يجرون في كافّة الاتّجاهات. غرسوني مكتوف اليدين في كرسيّ متحرّك. قرقعت أبواب الـBMW بلطف. قال لي أحدهم يومًا إنّ السيّارات الجيّدة تُعرف من نوعيّة القرقعة. فتنني ضوء الأروقة. في المصعد أغدق عليّ مجهولون التشجيع وأدرك البيتلز نهاية «يوم في الحياة»، والبيانو الساقط من الطابق الستين. لكن قبل أن يتحطّم، كان لديّ ما يكفي من الوقت لفكرة أخيرة. يجب أن ألغي ذهابنا للمسرح. كنّا سنصل متأخّرين على أيّة حال. سنذهب غدًا مساءً. بالمناسبة، أين ذهب ثيوفيل؟ وغرقت في الغيبوبة.

Twitter: @ketab_n

العودة

شارف الصيف على النهاية. انتعشت اللّيالي، وبدأتُ أحتجب تحت البطانيّات الغليظة الزرقاء ذات ختم «مستشفيات باريس». كلّ يوم يأتي بحصّته من الوجوه المعروفة، إذا استثنينا أيّام العطل: منظّفة الغسيل، طبيب الأسنان، موزّع البريد، وممرّضة صارت جدّة لرضيع اسمه توماس، فضلاً عن الرجل الذي كسر إصبعه في يونيو جراء حاجز السرير. صرنا نُدرك الخاصّ والمُعتاد، وفي الحقيقة هذا الدخول الأوّل للمستشفى أكّد لي يقينًا أنّني هنا بدأت حياة جديدة بين هذا السرير وهذه الأريكة وهذه الأروقة، لا في أيّ مكان آخر.

استطعت أن أغمغم أغنية الكنغر الصغيرة، النشيد المعيار لمدى تقدّمي في علاج النطق:

«وثب الكنغر على الحائط،

حائط حديقة الحيوان،

يا إلهي كم كان عاليًا

يا إلهي كم كان جميلاً»

لم أكن أملك عن عودة الآخرين غير أصداء خافتة. العودة الأدبيّة، والعودة المدرسيّة، والعودة الباريسيّة. سأعرف المزيد قريبًا،

Twitter: @ketab_n

عندما يسلك المسافرون ثانية طريق بارك، وفي أخراجهم المتدلّية تشكيلة كاملة من الروائع الجديدة يبدو أنّ ثيوفيل يتجوّل بحذاء رياضي يومض قاعه كُلّما ضرب به الأرض، ما يُتيح مُتابعته في الظلام. في الانتظار أتذوّق الأسبوع الأخير من شهر أغسطس بقلب شبه منتعش، إذ لأوّل مرّة منذ أمد بعيد لا يحصل لي ذلك الانطباع الفظيع، بانطلاق عدّاد تنازليّ في العمل مع بداية العطلة، مُفسدًا بلا رحمة الجزء الأكبر منها.

متّكئة على طاولة الفورميكا[1] الصغيرة ذات العجلات، وقد اتّخذتها مكتبًا، تُعاود كلود قراءة تلك النصوص التي انتزعناها من العدم في فترات ما بعد الظهر لمدّة شهرين. بعض الصفحات سرّني الاطّلاع عليها مُجدّدًا، وأخرى خيّبت ظنّي. هل يمكن لكلّ هذا أن يصنع كتابًا؟

وأنا أستمع إليها، أراقب خصلات شعرها البنيّ، خدّيها الباهتين اللذين لم تُورّدهما الشمس والريح بما يكفي، يديها المرصّعتين بأوردة طويلة زرقاء، والمشهد العام الذي سيغدو مُستقبلاً الصورة الذكرى لصيف مُثابر: الكرّاس الأزرق الكبير الذي كانت تملأ وجه كلّ ورقة منه بكتابة فيها الكثير من التشطيب ولكن منقولة بأمانة، مقلمة التلميذة المليئة بأقلام احتياطيّة، رزمة المناديل الورقيّة الجاهزة لأسوء الاحتمالات، والمحفظة المصنوعة من ليف نخيل الرافية، ومنها كانت تستخرج النقود بين وقت وآخر لشراء قهوة. ألاحظ عبر الفتحة الموارِبة لكيسها البلاستيكيّ الصغير مفتاح غرفة الفندق، فضلاً عن

(1) الفورميكا: قشرة خشب مُعالجة بالرّيزين، ما يمنحها مناعة ضدّ الماء.

Twitter: @ketab_n

تذكرة مترو وورقة نقديّة من مائة فرنك مطويّة على أربع، تماما مثل الأشياء التي ينقلها مسبار فضائيّ مرسل إلى الأرض لدراسة طرق العيش والنقل والتبادلات التجاريّة الجاري بها العمل بين الأرضيّين. أشرد في المنظر وأغرق في التفكير. هل هناك في هذا الفضاء مفاتيح لأفتح بذلة غوصي؟ خطّ مترو دون محطّة وصول؟ عملة قويّة بما يكفي لأشتري حرّيتي من جديد؟ يجب أن أبحث في مكان آخر.

سأذهب إليه.

بارك الشاطئ، يوليو-أغسطس 1996

Twitter: @ketab_n

ألفـ راء

| علامات في الرواية العالمية |

| سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي |

الساعة الخامسة والعشرون

المؤلّف: قُسطنطين جيورجيو

البلد: رومانيا

ترجمة: فائز كم نقش

إنّ رواية «الساعة الخامسة والعشرون» أحد أكثر الأعمال السردية الباعثة على أسئلة جذرية حول مصير الإنسان المأسَوِيّ، رواية تتجلّى فيها أصداء الملاحم الكبرى، والتراجيديات الإغريقيّة والمآسي الشكسبيريّة، ومجمل الأعمال التي انصبّ اهتمامها على مصير الإنسان، لذلك فهي تنتسب إلى سلالة الآداب السرديّة الرفيعة الخالدة.

ولعلّ القرّاء يشاطرونني الرأي القائل إنّ كثيرا من الروايات يتلاشى حضوره من الذاكرة بمرور الأيام، وتصبح استعادة أجوائه صعبة، وربما شبه مستحيلة، وقليلا منها يدمغ الذاكرة بختمه الأبدي، ومن ذلك القليل النادر، في ما أحسب، رواية «الساعة الخامسة والعشرون»

د. عبد الله إبراهيم

أحدثت هذه الرواية ضجّة في أوروبا كلّها لم يحدثها كتاب مماثل من قبل، فترجمت إلى أكثر من 40 لغة وأعيد طبعها في فرنسا وحدها 78 طبعة، أمّا في شرقنا العربيّ فقد حظيت بتقريظ واف، فقال بعضهم فيها: «إنّها أفضل كتاب صدر بعد جمهوريّة أفلاطون» وقال آخرون: «لم يسبق لكاتب أن نجح في هزّ مشاعر جماهير العالم كلّه نجاح مؤلّف هذا الكتاب»

فائز كم نقش

Twitter: @ketab_n

البنية والسيجارة

المؤلف: بونوا ديتيرتر
البلد: فرنسا
ترجمة: زهير بوحولي

بسخرية حادّة يرسم الروائي الفرنسي بونوا دي تيرتر عالمًا يعجّ بالمفارقات ويدين كلّ التصوّرات الشموليّة التي جاءت باسم خلاص الإنسان فقادته إلى مثواه.

«البنيّة والسيجارة» علامة من علامات أدب الديستوبيا (أدب المدينة الفاسدة) في القرن الحادي والعشرين، ولكنّها دستوبيا ساخرة تُعرّي بخفّة تهافت عالم من المُثل والأحلام والقيم حتّى تغدو الخفّةُ صنوًا للثقلِ ويصبح الكائن لا يُحتمل.

رواية نُشرت سنة 2005 ومع ذلك فقد بلغت حدّ التنبّؤ العام والتفصيلي أحيانا بما سيحدث في سورية مثلا في السنوات الأولى من العشرية الثانية إذ يصوّر الكاتب مشاهد لهو الإرهابيين السينمائي بضحاياهم مسجِّلا سبقا سرديا وحدسيا لما سيشاهده العالم بأسره بعد ذلك على شاشات التلفاز.

تنقذ سيجارةٌ حياةَ محكوم عليه بالإعدام فيخرج من غياهب السجن إلى ساحات المجد والشهرة بدعم من لوبيات صناعة التبغ، وتقلب سيجارة حياة موظّف رأسا على عقب فيتهاوى إلى الدرك الأسفل. وبين هذا وذاك رسائل عديدة يبعث بها الكاتب: إدانةُ النفاق الاجتماعي إذ يكرّس شعارات «العناية بالطفولة» محلّ «الأفكار الشمولية». والدعوةُ إلى الاهتمام بأنموذج بشريّ كاد يلفّه النسيان: الرجل الكهل المنتج، تتغذى الإنسانية من لحم كتفيه ولا يغنم غير الإهمال.

Twitter: @ketab_n

ساعي بريد نيرودا
المؤلف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

هي حقّا رواية بطعم الفاكهة، تبدؤها فإذا أنت متورّط فيها حدّ المتعة، تنال من كلّ حواسّك وتسحبك من عالمك إلى عالمها فلا تستطيع لها تركا ولا منها فكاكا قبل أن تقرأ الجملة الأخيرة .. رواية شحيحة الشخصيّات قليلة الأحداث يمكن تلخيصها في كلمة «نيرودا» وهو ممدّد على فراش المرض ردّا على ساعي بريده «ماريو خيمينث» وهو يسأله عمّا يشعر.. فيجيبه بكلّ بساطة وعمق: «أشعر بأنّي أحتضر. وباستثناء ذلك ليس هناك ما هو خطير».

أيّة مفارقة أجمل من لعبة اللغة توحي وتسخر وتمكر؟ لغة هي النّسيج واللّباس والرّائحة والالتباس. تلتبس عليك الأحداث فلا تعرف ما الواقع وما الخيال وما السّحر. وتلتبس عليك الشّخوص والشخصيّات والأشخاص فتتساءل: من البطل؟ ولا جواب .. كلّهم أبطال ولا بطل.

نحن إزاء رواية علامة في تاريخ الأدب العالميّ. علامة تنساب المتعة مع سطورها كخدر الحبّ في العروق لذلك فهي تكره القارئ العاديّ وتنشد قارئا عاشقا شبقا لا ينتهي من الصفحة حتّى يستزيد إلى أن يفقد الوعي... أي يسترجعه.

ظافر ناجي

Twitter: @ketab_n

قطار الليل إلى لشبونة

المؤلف: باسكال مرسييه
البلد: سويسرا
ترجمة: سحر ستالة

منذ الصفحات الأولى لـ«قطار الليل إلى لشبونة» يُسمع صدى صوت عنيد، يكبر على امتداد الصَّفحات و لا ينفك يردد بأن هذا الكتاب الضخم رواية عظيمة. رواية قادمة من عصر آخر، عصر الإنسانيات قبل أن تدمّر السخرية أو اللامبالاة حبّ المعرفة.

الفيغارو

تتداخل الأحداث والأمكنة والذكريات، وتتدفّق المشاعر والمعارف والأفكار في نهر واحد ليس شيئا آخر سوى نهر الذّات وهي تستيقظ على نداءاتها المكتومة وأسئلتها المهملة: «إذا كان صحيحا أننا لا نعيش إلّا جزءا صغيرا مما يعتمل في داخلنا، فما هو مصير بقية الأجزاء إذن؟». سؤال مهمل من بين أسئلة كثيرة أخرى لا يكفّ هذا العمل الساحر عن إيقاظها فينا حتى تغدو حياتنا بأسرها موضع سؤال. ما الأدب إن لم يكن طريقا إلى الإنسان؟ وما قطار الليل إن لم يكن رحلة في خبايا الذات؟ وما الذّات إن لم تكن الفريد والمختلف والغريب في وجه المشترك والمؤتلف والمألوف؟

لا قطار ولا ليل ولا لشبونة، إنّها دعوة لكلّ واحد منّا كي يقتطع تذكرته الخاصّة بحثا عن الإنسان فيه، الإنسان الذي تركه غريبا مُهملا في محطة مهملة على سكّة الحياة.

شوقي العنيزي

Twitter: @ketab_n

لاعب الشطرنج

المؤلف: ستيفان زفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: سحر ستّالة

كيف السبيل إلى الإحاطة بعمل روائيّ صغير إلى هذا الحدّ يكاد يشفّ لبساطته ووضوحه وكلّ ما فيه يشدّنا إلى متاهة وسمها الكاتب عمدًا بـ «رقعة الشطرنج»؟ وأيّ مدخل قد يسعفنا في استكناه خبايا أبطاله والكلّ لاعبٌ والكلّ مشاهدٌ في نفس الوقت؟

كتب ستيفان زفايغ إلى صديقه هرمان كيستن قبل انتحاره بخمسة أسابيع: «ليس هناك شيء مهم أقوله عن نفسي. كتبت قصة قصيرة حسب أنموذجي المفضّل البائس، وهي أطول من أن تنشر في صحيفة أو مجلة وأقصر من أن يضمّها كتاب وأشد غموضا من أن يفهمها جمهور القراء العريض وأشد غرابة من موضوعها في حد ذاته».

إنّ «لاعب الشطرنج» على بساطتها رواية مراوغة ظاهرها حكاية طريفة ممتعة عن سيرة لاعب شطرنج، وباطنها رسالة وداع وجّهها الكاتب زفايغ إلى الإنسانية جمعاء بعد أن فقد الأمل في الإنسان كما حلم به ودافع عنه، الإنسان الذي تحوّل إلى آلة تدمير لا هاجس لها غير السيطرة والربح: رجل الدين، رجل الأمن، المحامي، التاجر، لا أحد نجا من الإدانة، ولا أحد حافظ على هويّته في لعبة التحوّلات. لقد غربت الشمس وآن الأوان لكي نقول وداعًا.

شوقي العنيزي

Twitter: @ketab_n

زوربا اليوناني

المؤلف: نيكوس كازنتزاكي
البلد: اليونان
ترجمة: أسامة إسبر

«لقد أربكتني هذه القصّة كثيرا. يوم قرأتها شعرت بشيء من الغبطة والحزن معا. كنت أريد أن أحبّ رجلا كهذا... أو أكتب رواية كهذه، ولم يكن ذلك ممكنا، ولهذا ستطاردني حتّى أشفى منها بطريقة أو بأخرى.»

أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد

زوربا... شخصيّة ورمز... توقّف عن أن يكون وجها وقسمات ليصير علامة... علامة بكلّ مفهومها التأويليّ... إحالة تقود إلى إحالة... لتدلّ على إحالة وتتواصل السلسلة...

شخصيّة فاضت على كل حدّ وهربت من سجن الرواية على رحابته لتُصبح رمزا للمُهمّشين، للّذين يتعلّمون من الحياة، فيلسوفًا يعلّم الفيلسوف، حكمتُه خبرات المعيش ومعترك الوجود الإنساني...

رقصة زوربا انتهت دستورا للكون، رؤية تسخر من المعارف المتطاولة على الدنيا، المتعالية على الأرض، وتثور على وضع تكون فيه إمّا خادما أو مخدوما... تكسر كلّ قالب لتأتيك في كلّ لحظة بدرس جديد مُلخّصه: لا شيء يعلو على صوت الحياة الصاخب...

ظافر ناجي

Twitter: @ketab_n

لمواكبة جميع إصداراتنا، تابعوا صفحتنا

على تويتر: MascilianaE@

وعلى الفايسبوك: Masciliana Editions

Twitter: @ketab_n



Twitter: @ketab_n

جون دومينيك بوبي

بذلة الغوص والفراشة

من حيث ينتهي المُتاح، يبدأ الإبداع، والأنفس الحرّة وإن غدت جثثًا، قادرةٌ على الطيران.

درسان عميقان من رواية لم تكلّف نفسها عناء الوعظ والإرشاد، فكلّ ما فعله الكاتب أن أصرّ على الحياة، ولمثل تلك المهمّة يكفي أنف ورئة للتنفّس، وبلعوم لتلقّي الغذاء، ورمش عين يُسرى لباقي الأدوار! نعم برمش العين ذاك أبقى جون دومينيك بوبي على صِلته بالعالم كاملةً مُبتكرًا طريقةً في التواصل هي الترجمة الحيّة لكلمة «إرادة»، تُلفظ أمامه الأبجديّة تباعًا فيرمش للحرف المناسب، لتتشكّل الأحرف كلمات، وتبرعم الكلمات جملاً وفقرات، فهل بعد هذه الحياكة من حياكة؟ أمّا مضمون السرد فذهاب وإياب بين أمسٍ قادرٍ وحاضرٍ كسيحٍ، وبين خارجٍ يُرى، وداخلٍ يَرَى، والرواية ككلّ الأعمال الكُبرى نبش في أسئلة الماهية وثنائيّة الجوهر والعَرَض، حتى وإن توسّلت بالفكاهة القاتمة بل لعلّها ما أفلحت إلّا لذلك، أوَليست روح الكاتب الخُلّبُ هي المعادل الموضوعي للفكاهةِ وخفّتِها الأشبه بالفراشة، وَجسدُه المأزق هو بذلة غوصه الضاغطة والقاتمة لونُها واقعاً ومجازاً؟

رمزي بن رحومة

ISBN: 978-9983-833-86-7



